الفصل الثانى

القدوة العليا

فى الفصل الأول رأينا أن لرسول الله من الصفات الأساسية للرسل الحظ الأعلى. وسنرى فى هذا الفصل أن جوانب شخصية الرسول عليه السلام متعددة تعددا يجعله منفردا عن الرسل بميزات، ان شاركوه فى بعضها فلم يشاركوه فى الكل. فشخصية الرسول تمثلت بها كل جوانب الحياة وما كل رسول كان له مثل هذا. فالرسول عليه السلام كان أبا وما كل رسول كان أبا، وكان زوجا وما كل رسول تزوج، وكان رئيس دولة ومؤسسها وما كل رسول أقام دولة. وكان القائد الأعلى لجيش الاسلام والمحارب الفذ وما كل رسول حارب. وبعث للإنسانية عامة فشرع لها بأمر الله ما يلزمها فى كل جوانب حياتها العقيدية والعبادية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية والسياسية، ولم يبعث رسول قط إلى الانسانية عامة غيره وكان المستشار والقاضى والمربى والمعلم والمهذب والعابد والزاهد والصابر والرحيم.. الى آخر صفاته عليه السلام التى استوعبت كل جوانب الحياة، فكان بذلك بين الرسل الرسول المفرد العلم الممتاز ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ [البقرة :٢٥٣] وإنما كان ذلك لأن الله جلت حكمته جعل الاسلام المنزل على محمد نظاما شاملا لجوانب حياة البشر كلها، وجعل حياة رسوله نموذجا لدينه كله فى كل جوانبه، حتى تقوم الحجة على الناس مرتين، مرة بالبيان النظرى ومرة بالبيان العملى، وشئ آخر هو أن البشر فيهم الأب والابن والزوج. وفيهم السياسى والاقتصادى ورجل الشورى، وفيهم المحارب والمسالم، وفيهم المبتلى والمعافى وفيهم الراعى والرعية وفيهم العامل والتاجر، فالحياة البشرية متعددة الجوانب، وكل إنسان فيها يعيش حياة كاملة تختلف فى بعض جوانبها أو تتفق مع الآخرين، وقد فرض الله على البشر على اختلاف مستوياتهم وتعدد مواقف حياتهم، أن يكون الرسول لهم القدوة فى كل شئ، فما لم تكن شخصية الرسول متعددة الجوانب والمواقف هذا التعدد، لا يكون قدوة لكل البشر فى كل شئ.

وقد يعجب إنسان أن تكون حياة رسول الله من الخصب بحيث تستوعب كل

جوانب حياة البشر. فتكون قدوة لهم فى هذا كله، ولكنه الواقع الذي تشهد له كل الدراسات النظرية والعلمية:

فمثلا من الناحية النظرية ادرس مواقف الصبر عنده فانك تجدها قد استوعبت كل موقف يحتاج الناس به الى الصبر. لقد أقام الله رسوله مقام المخرج من وطنه، ومقام من مات له ولد وأولاد، وأولاد أولاد، ومن ماتت له زوجة وعم وأبناء عم. بعضهم قتلى. ومقام من فشل فى المعركة ومن أوذى واستهزئ به ومقام من شمت فيه. ومن اتهم بمرض أحب الخلق اليه ومقام من مرض وجرح. ومقام من جاع وعطش وخاف وغير ذلك من المقامات التى يعتبرها الناس مصائب بحيث لا تصيب الانسان مصيبة الا ويرى رسول الله قد أصيب بمثلها. وكان له موقف مثالي منها، فيقف مثله إن كان مؤمنا. ومن الناحية العملية، فان تاريخ الأمة الاسلامية ما خلا فى عصر من عصوره، من ملايين من أفراد هذه الأمة، مختلفى المدارك، مختلفى المستويات. مختلفى الاختصاصات، مختلفى المشارب. منهم الفقيه، والفقير والقائد، والرئيس والعالم والعابد وغيرهم وغيرهم، كلي منهم متمسك بحبل الاقتداء برسول الله فى الصغيرة والكبيرة. حتى إنك لتجد النماذج المتباينة من هؤلاء وكل منهم يقيم الدليل على أن سلوكه هو سلوك رسول الله فيما يسير عليه، وكل ذلك فى الواقع ناتج عن الخصب فى حياة الرسول التى استوعبت أحوال البشر جميعا.

والرسول عليه السلام فى كل موقف من هذه المواقف، وفى كل حال من الأحوال، وفى كل جانب من الجوانب، كان المثل الأعلى للبشر والقدوة العليا والوحيدة لهم. إذ إليه يرجع الكمال فى كل شئ، ومنه يعرف الكمال فى كل شئ، وهذا هو الجانب الذى سنعرض له فى هذا الفصل ليتضح لنا أنه لا كمال لأى إنسان مهما كان فى أى حالة. إلا باتباعه والاقتداء به والتأسى فيه، وان الله لم يعط من الكمال لإنسان ما أعطاه محمدا، ولم يجتمع فى إنسان من الكمالات ما اجتمع فى شخصه العظيم، وذلك آية الله على أن هذا الإنسان رسوله إذ ما كان هذا ليجتمع لإنسان منبت عن الله وكمالاته، وإحاطة علمه وتوفيقه، وطبعا نحن لا نستطيع وخاصة فى مثل هذا الفصل القصير المخصص لهذا البحث. أن نحيط بجوانب شخصية الرسول عليه السلام مع الإشارة إلى الكمال عنده فى كل. فذلك شئ يستنفذ جهد الباحثين الكثر ولا يحاط به. وإنما سنكتب هنا أربع فقرات فقط وباختصار. حول أربعة جوانب من حياته عليه السلام نرى فيها ما قدمناه واضحا وهو مقصود هذا الفصل.

هذه الفقرات هى:

الفقرة الأولى: الأخلاقى الأول.

الفقرة الثانية: رجل الأسرة الأول أبا وزوجا.

الفقرة الثالثة: المعلم والمربى الأول.

الفقرة الرابعة: رجل الدولة الأول سياسيا وعسكريا.

واخترنا هذه الجوانب لأن المعروف عند الناس. أن كمال الانسان فى جانب من هذه الجوانب يكون على حساب تفريطه فى بقية الجوانب، وكلامنا فى غير المقتدين بالرسل من أتباعهم، فاجتماع الكمال لرسول الله فى هذه الجوانب كلها دليل على صحة ما قلناه ولنبدأ باستعراض الفقرة الأولى.

* * *

١- الأخلاقى الأول

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ١]

إن أبرز سمة فى شخصية الرسول ﷺ المتعددة الجوانب أخلاقياته التى لا مثيل لها فلو أنك جمعت كل خلق عظيم فى العالم. وكل تصرف أخلاقى سليم تصرفه فى يوم من الأيام إنسان. فإن ما تجده فى حياة رسول الله ﷺ يربو على هذا كله مجتمعا. مع انعدام التصرفات غير الأخلاقية فى حياته عليه السلام، مما لا تستطيع معه أن تجد فى حياته كلها تصرفا يمكن أن ترى أعظم منه فى باب الأخلاق عند غيره ﷺ. وكان أصحابه ﷺ يعرفون منه هذا، ويتصرفون على أساسه معه، فكثيرا ما كانوا يوقفون ناسا مواقف من الأنبياء السابقون فيها سننا فكان يفعل ما فعلوا. ويعرف الصحابة ماذا سيفعل، إذ أنهم يعرفون عنه أنه لا يرضى أن يكون أحد أرقى منه تصرفا أو مسلكا.

فى الطريق الى فتح مكة لقى الرسول ﷺ أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبى أمية وهما ابن عمه وابن عمته وكانا من أشد الناس إيذاء له بمكة. فأعرض عنهما فأشار على بن أبى طالب على ابن عمه بما يلى قال له: ائته من قبل وجهه وقل له ما قال إخوة يوسف: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٩١] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جوابا ففعل ذلك أبو سفيان

فقال له رسول الله ﷺ : ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢].

فانظر ذلك الذى لا يرضى أن يسبقه أحد فى موقف من مواقف مكارم الأخلاق . إن أخلاق الرسول ﷺ هى ميزة شخصيته الكبرى، حتى أنه ليحدد مهمة رسالته بقوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » والواقع أنك لا تستطيع أن تأخذ صورة كاملة عن أخلاق الرسول ﷺ . إلا إذا فهمت القرآن والسنة، وكل ما له علاقة بسيرة الرسول ﷺ . إذ أخلاقه كما وصفته سيدتنا عائشة رضى الله عنها هى القرآن : « كان خلقه القرآن » .

وقد رأيت بشكل عملى فى بحث الأمانة من الفصل الأول كيف أن كل آية من القرآن كان ﷺ المظهر العملى لها إذ استعرضنا هناك عددا من الآيات والأمثلة التطبيقية على ذلك فيه .

إلا أننا نريد بهذا البحث أن نأتيك ببعض أمهات الأخلاق ومظهرها عند رسول الله ﷺ بالشكل الذى لا يرقى إليه أحد سابقا أو لاحقا .

ونختار من هذه الأخلاق الصبر والرحمة والحلم والكرم والتواضع . فهذه من أمهات الأخلاق التى تحمد إذا كانت فى محلها، وسنرى أن رسول الله ﷺ يضع كل شئ فى محله فإذا كان العفو غير محمود فلا عفو . وإذا كانت الرحمة غير محمودة فلا رحمة . وهكذا، فرسول الله ﷺ هو الميزان الذى توزن بتصرفاته أخلاق البشر ويتحدد بهذه التصرفات حدود كل خلق فلا يطغى خلق على خلق .

أولا : نماذج من صبره :

١ – مر معك فى مبحث التبليغ صور من صبره ﷺ على الاضطهاد والتعذيب، والإيذاء والتجويع والسخرية والردود القبيحة عليه والاهانات المتوالية، وكل هذا تحمله بصبر . فإذا ما علمنا أن هذه الفترة استغرقت ثلاثة عشر عاما، أدركنا مقدار الصبر الذى تمتع به رسول الله ﷺ . وليس هذا فحسب بل كل ما أصيب به هو أصيب به أتباعه والأذى الذى لحق به لحق بأقاربه وهو الشريف، وكل هذا يجرح نفس الانسان ويحطم أعصابه، ومع ذلك فما أبه ﷺ لهذا كله، بل تحمله وتحمل معه الاتهامات الباطلة بالجنون والكذب والسحر .. و ..

والذى جرب هذه القضايا كلها يعلم كم تحتاج الى طاقة من الصبر لا تنفد. فاذا ما علمنا أن رسول الله ﷺ تحمل هذا كله، وهو يقف من الناس موقف الهجوم وموقف الدعوة إلى ما عنده. نعلم أن المسألة هنا أكبر من الصبر ذاته.

٢- فاذا ما انتقلنا الى موطن آخر يمتحن فيه الصبر وهو مواطن القتال، رأينا كذلك عجبا. ولعل أبرز مواقفه الصابرة فى الحرب والتى تتحطم فيها أقوى الأعصاب موقفاه يوم أحد ويوم الخندق، يوم الهزيمة الذى بقى فيه ثابتا، ويوم الحصار الذى أخذ بالأنفاس وبقى فيه كله أمل، وهاك وصفا مختصرا لموقفه الصابر فى اليومين:

- روى مسلم أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش.

«واستطاع المشركون أن يخلصوا قريبا من النبى فرماه أحدهم بحجر كسر أنفه ورباعيته وشجه فى وجهه فأثقله وتفجر منه الدم وشاع أن محمدا قتل فتفرق المسلمون ودخل بعضهم المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل واختلطت على الصحابة أحوالهم فما يدرون ما يفعلون».

«وكان رسول الله ﷺ ينثل السهام من كنانته ويعطيها سعد بن أبى وقاص ويقول ارم فداك أبى وأمى وكان أبو طلحة الأنصارى راميا ماهرا فى إصابة الهدف قاتل دون رسول الله ﷺ فكان اذا رمى رفع رسول الله شخصه ينظر أين يقع سهمه.

فى هذا اليوم الشديد إذ فر المسلمون ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا هذا العدد القليل، ومع ذلك بقى صابرا يدير المعركة التى طرفاها ثلاثة آلاف مقابل أفراد. ولم يهزم ولكنه أصر مع من معه على الاستبسال. حتى رأى المشركون أن خسارتهم أكبر من ربحهم فتركوهم.

فأى صبر هذا الصبر؟

ولا ننسى أن نذكر أن الشائعة بقتل محمد ﷺ كانت قد راجت والرسول ﷺ نفسه، منع من عرفه من تكذيبها. حتى يثبط قريشا عن المضى فى المعركة. فاذن هو صبر فى أحرج المواقف لا يخرج صاحبه عن كامل التدبير.

- ويوم الخندق وقد حوصرت المدينة هذا الحصار الطويل الصعب الذى لم

يعرف المسلمون فيه نوما ولا راحة، والأحزاب تمطرهم بوابل من الهجمات على الأمكنة الضعيفة وتحركات المسلمين من مكان الى مكان خشية المباغتة وقد طالت الفترة وتعب المسلمون، وكانوا كما وصفهم الله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ١٠-١١] فى هذا الوضع المخيف يأتى الخبر الصاعق أن قريظة نقضت عهدها وقررت القتال وأصبح المسلمون جميعا معرضين لقتل الأنفس وسبى الذرية فأى صبر يحتاجه القائد فى تلك اللحظات فى ذلك الموقف الذى يحطم الأعصاب.

لقد تقنع رسول الله ﷺ بثوبه واضطجع ومكث طويلا حتى إذا هضم المسلمون خطورة موقفهم، قام يبث الأمل ويشد العزائم ويرفع المعنويات، وهو يقول:

«أبشروا بفتح الله ونصره» إن خطورة الموقف الشديد لم تؤثر ذرة على أعصاب القائد العظيم بل هو الصبر الذى يربو على الصبر.

٣- فإذا ما انتقلنا الى موطن آخر من المواطن التى يمتحن فيها الصبر، وهو موطن موت الأولاد والأقارب والأصحاب وقلب رسول الله ﷺ. القلب الرحيم، ومع ذلك فانه الصبر الذى يفيض العبرة بلا شكوى ولا ضجر، وهذه أمثلة من مواقفه فى هذه المواطن:

أخرج ابن سعد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال:

«رأيت ابراهيم وهو يكيد بنفسه بين يدى رسول الله ﷺ فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضى ربنا والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون».

وأخرج ابن سعد أيضا عن مكحول قال:

«دخل رسول الله ﷺ وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وابراهيم يجود بنفسه فلما مات دمعت عينا رسول الله ﷺ فقال له عبد الرحمن: أى رسول الله هذا الذى تنهى الناس عنه متى يراك المسلمون تبكى يبكوا قال: فلما سريت عنه عبرته قال: إنما هذا رحمة وإن من لا يرحم لا يرحم إنما ننهى الناس عن النياحة وأن يندب الرجل بما ليس فيه.

ثم قال: لو لا أنه وعد جامع وسبيل مئتاء وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجدا غير هذا وإنا عليه لمحزونون. تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وفضل رضاعه فى الجنة».

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال:

«لما قتل حمزة يوم أحد أقبلت صفية تطلبه لا تدرى ما صنع فلقيت عليا والزبير فقال على للزبير: اذكر لأمك وقال الزبير لعلى: لا.. اذكر أنت لعمتك قالت: ما فعل حمزة؟ فأرياها أنهما لا يدريان فجاءت النبى ﷺ فقال:

إنى أخاف على عقلها فوضع يده على صدرها ودعا فاسترجعت وبكت ثم جاء فقام عليه وقد مثل به فقال: لولا جزع النساء لتركته حتى يحصل من حواصل الطير وبطون السباع.. ثم أمر بالقتلى فجعل يصلى عليهم فيضع تسعة وحمزة فيكبر عليهم سبع تكبيرات ثم يرفعون ويترك حمزة، ثم يؤتوا بتسعة فيكبر عليهم سبع تكبيرات ثم يرفعون ويترك حمزة، ثم يؤتوا بتسعة فيكبر عليهم سبع تكبيرات... حتى فرغ منهم».

وأخرج الطيالسى وأحمد وأبو داوود والترمذى وابن ماجه وأبو عوانة وابن حبان عن أسامة بن يزيد رضى الله عنه. قال:

«كنا عند النبى ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيا لها فى الموت. فقال للرسول: ارجع اليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شئ عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب فعاد الرسول فقال: إنها قد أقسمت لتأتينها فقام النبى ﷺ وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ورجال وانطلقت معهم فرفع الى رسول الله الصبى ونفسه تقعقع كأنها فى شن ففاضت عيناه فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده وانما يرحم الله من عباده الرحماء».

٤- فإذا ما انتقلنا الى موطن آخر من المواطن التى يمتحن بها الصبر وهو الصبر على المرض والجوع والفقر. نجد دائما القمة التى لا يرقى إليها الراقون.

أخرج أحمد والطبرانى وهذه رواية الطبرانى:

« أن فاطمة ناولت النبى ﷺ كسرة من خبز الشعير فقال: ما هذه؟ قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال لها: هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام ».

وأخرج ابن أبى الدنيا عن ابن بحير قال:

« أصاب النبى ﷺ جوع يوما فعمد الى حجر فوضعه على بطنه ثم قال: ألا رب نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم ».

وأخرج مسلم والترمذى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال:

« ألستم فى طعام وشراب ما شئتم؟ لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل ما يملأ بطنه (الدقل: أردأ التمر) » . وفى رواية لمسلم عن النعمان رضى الله عنه قال: « ذكر عمر رضى الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا - فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل ما يملأ بطنه ».

وأخرج أبو نعيم فى الحلية والخطيب وابن عساكر، وابن النجار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

« دخلت على النبى ﷺ وهو يصلى جالسا فقلت: يا رسول الله أراك تصلى جالسا فما أصابك؟

قال: الجوع يا أبا هريرة. فبكيت. فقال: لا تبك يا أبا هريرة، فإن شدة الحساب يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب فى دار الدنيا ».

وأخرج الطبرانى وابن حبان فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: خرج أبو بكر رضى الله عنه بالهاجرة الى المسجد، فسمع عمر رضى الله عنه فقال: يا أبا بكر ما أخرجك هذه الساعة؟

قال: ما أخرجنى الا ما أجد من حاق الجوع (أى شدة الجوع) قال: وأنا - والله - ما أخرجنى غيره. فبينما هما كذلك إذ خرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: ما أخرجكما هذه الساعة؟ قالا: والله ما أخرجنا الا ما نجد فى بطوننا من حاق الجوع قال: وأنا - والذى نفسى بيده - ما أخرجنى غيره. فقوما فانطلقوا ».

وأخرج ابن ماجه وابن أبى الدنيا عن أبى سعيد رضى الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك[1] عليه قطيفة فوضع يده فوق القطيفة فقال: ما أشد حماك يا رسول الله. قال: إنا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر. ثم قال: يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟

قال: الأنبياء. قال: ثم من؟

قال: العلماء. قال: ثم من؟

قال: الصالحون.

وأخرج البيهقى عن أبى عبيدة بن حذيفة رضى الله عنه عن عمته فاطمة رضى الله عنها قالت:

أتينا رسول الله ﷺ فى نساء نعوده وقد حم فأمر بسقاء فعلق على شجرة ثم اضطجع تحته فجعل يقطر على فواقه من شدة ما يجد من الحمى فقلت: يا رسول الله، لو دعوت الله أن يكشف عنك، فقال: إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

* * *

وأنت ترى من هذه الأمثلة أنه ما من موطن من مواطن امتحان الصبر إلا وقد امتحن فيه صبر رسول الله ﷺ. وفى كل مرة نجد عنده الصبر الذى لا يخالطه هلع، إنها أخلاق النبوة فى أعلى كمالات البشر.

* * *

ثانيا - نماذج من رحمته:

١- والناس الذين يخوضون المعارك ويسوسون البشر. تقسو قلوبهم وتجف دموعهم، ونادرا ما تجد الموغل فى ذلك متصفا بصفة الرحمة، ولكن رسول الله ﷺ ومن اقتدى به ليسوا من هذا الطراز، فمهما شئت عندهم من شجاعة وقوة وشدة وصبر وجدت، ولكنها صفات لا تطغى على خلق الرحمة أبدا، بل كما أن هذه

---

(١) موعوك: محموم.

الصفات فى كمالها فكذلك خلق الرحمة عنده ﷺ فى كثير من المواقف رحمة وشفقة، وهو الصابر الذى ما عرف أكثر صبرا منه، والمقاتل الذى ما عرف أكثر حنكة منه، يفيض قلبه بالرحمة فيبكى وتدمع عيناه، وقد يسمع صوت بكائه، إنها نفس تجيش جيشانا ببحار الرحمة.

٢- وهناك مواطن يفقد فيها الرحماء رحمتهم ولكن رسول الله ﷺ لا تفارقه رحمته، يؤذى ويضرب ويضطهد فيقول: «اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون» ويوم فتح مكة وقد فعلت به ما فعلت، كان موقفه غير المتوقع كما قص عمر قال: لما كان يوم الفتح ورسول الله ﷺ بمكة أرسل الى صفوان بن أمية والى أبى سفيان بن حرب وإلى الحارث بن هشام قال عمر: فقلت:

لقد أمكن الله منهم لأعرفنهم بما صنعوا حتى قال رسول الله ﷺ: مثلى ومثلكم كما قال يوسف لاخوته: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. قال عمر: فافتضحت حياء من رسول الله ﷺ كراهية أن يكون بدر منى وقد قال لهم رسول الله ﷺ ما قال.

إن المواطن التى تغيب عادة فيها عواطف الرحمة بعواطف الانتقام أو الانتصار تبقى صفة الرحمة عند رسول الله ﷺ فى محلها لا تطغى على غيرها ولا يطغى غيرها عليها.

- وكانت رحمته تسع الناس جميعا ويحس بها المستضعفون قبل الأقوياء، يقول عبد الله بن عمرو: دخل النبى ﷺ المسجد فجلس الى الفقراء وبشرهم بالجنة وبدا على وجوههم البشر فحزنت لأننى لم أكن منهم».

وجاء فى صحيح البخارى: «أن النبى ﷺ ذكر ذات يوم رجلا أسود فقال ما فعل ذلك الانسان؟ قالوا مات يا رسول الله، قال: أفلا آذنتمونى؟ فقالوا: إنه كذا وكذا قصته فحقروا من شأنه، قال دلونى على قبره فأتى قبره فصلى عليه».

وقال معاوية بن سويد: كنا بنى مقرن على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا خادم الا واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: اعتقوها فقيل ليس لهم خادم غيرها فقال: فليستخدموها فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها.

وأخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ قال: «انى لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى مما أعلم من وجد أمه من بكائه».

وبلغت رحمته الحيوان فكان أرحم الخلق به.

قال عبد الرحمن بن عبد الله: كنا مع رسول الله فى سفر فرأينا حمرة (طائر مثل العصفور) معها فرخان لها فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف) فلما جاء الرسول ﷺ قال: «من فجع هذه بولدها؟ .. ردوا ولدها إليها».

ونهى أن يتخذ الحيوان هدفا يرمى بالنبال يتعلم فيه الرمى، وأمر من يريد الذبح، أن يحد شفرته ويريح ذبيحته وألا يذبح الحيوان بمرأى من الحيوان، إن رحمته بلغت كل شئ.

- ولكنها الرحمة التى لا تجاوز حدها:

لما أسر أبا عزة الشاعر أول مرة استعطفه حتى أطلق سراحه على شرط ألا يقف بعد اليوم ضده، وتدور الأيام ويدخل أبو عزة المعركة ضد رسول الله ﷺ فيأسره مرة ثانية ويستعطفه مرة ثانية ولكن رسول الله ﷺ يقول: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ويأمر بقتله. وهذا الذى سنه رسول الله ﷺ فى هذه الحالة هو الذى أخذ به القانون الدولى فى القرن العشرين حيث نص على أن الأسير الذى يطلق سراحه بشرط عدم الدخول فى المعركة ضد آسريه مرة ثانية إذا أسر بعدها يقتل.

إنها الرحمة التى تفيض حتى تعم الخلق، ولكنها لا تجاوز محلها فتطغى على صفات الكمال الأخرى.

إنها الرحمة التى تفيض حتى تكاد تقتل صاحبها أسى لما يرى من انصراف الخلق عن طريق الجنة الى طريق النار. حتى يعاتب الله عز وجل صاحبها: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً** ﴾ [الكهف: ٦] إنها رحمة النبوة وإنها صفاتها.

* * *

ثالثا - نماذج من حلمه:

١ - وله ﷺ من الحلم - كما له من كل خلق - كماله. يغضب للحق إذا انتهكت حرماته اذا غضب فلا يقوم لغضبه شئ حتى يهدم الباطل وينتهى، وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس عن جاهل لا يعرف أدب الخطاب أو مسيء الى رسول الله ﷺ نفسه يمكن إصلاحه، أو منافق يتظاهر بغير ما يبطن وتجد حلمه دائما عجيبا. يفوق الحد الذى يتصوره الإنسان خاصة وأن حلمه مع القدرة على البطش والقتل والإرهاب.

إذ لا يشك أحد أن رسول الله ﷺ لو أمر بقتل إنسان لتبادر المئات إلى تنفيذ أمره. بل إن بعضهم لا يحتاجون إلى الأمر بقدر ما يحتاجون إلى الاذن. فلو أذن رسول الله ﷺ لطارت رؤوس عن كواهل أصحابها قبل أن ينهوا كلامهم، ولكن الرسول الحليم ﷺ كان يتحمل ويحلم حتى إنك لتراه الحلم مجسما.

فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى قال:

بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسما اذ أتاه ذو الخويصرة - رجل من بنى تميم - فقال: يا رسول الله.. اعدل، فقال رسول الله ﷺ: ويلك من يعدل إن لم أعدل؟! لقد خبت وخسرت! إذا لم أعدل فمن يعدل؟ فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: يا رسول الله ائذن لى فيه فأضرب عنقه.

فقال رسول الله ﷺ: دعه..

ويوم حنين إذ قسم رسول الله ﷺ ما قسم قال رجل: - كما يروى البخارى - والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت (أى عبد الله): والله لأخبرن رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته فقال: من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر.

وروى أحمد عن عائشة قالت:

«ما ضرب رسول الله بيده خادما له قط ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئا الا أن يجاهد فى سبيل الله، ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى

يكون إثما فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الاثم . ولا انتقم لنفسه من شئ يؤتى اليه حتى تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله » .

وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك أن امرأة يهودية أتت رسول الله بشاة مسمومة فأكل منها فجئ بها الى رسول الله فسألها عن ذلك قالت : أردت لأقتلك ، فقال : ما كان الله ليسلطك على - أو نال على ذلك - قالوا : ألا تقتلها؟ قال : لا . .

وأخرج ابن جرير عن أنس رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ يوما المسجد وعليه برد نجرانى غليظ الصنعة فأتاه أعرابى من خلفه فأخذ بجانب ردائه حتى أثرت الصنعة فى صفحة عنق رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أعطنا من مال الله الذى عندك فالتفت رسول الله ﷺ فتبسم فقال : مروا له .

وأخرج عن أبى هريرة قال : كنا نقعد مع رسول الله ﷺ بالغدوات فى المسجد فاذا قام الى بيته لم نزل قياما حتى يدخل بيته فقام يوما فلما بلغ وسط المجلس أدركه أعرابى فقال :

يا محمد . . احملنى على بعيرين فانك لا تحملنى من مالك ولا من مال أبيك وجذب بردائه حين أدركه فاحمرت رقبته فقال رسول الله ﷺ : لا . . وأستغفر الله لا أحملك حتى تقيدنى - قالها ثلاث مرات - ثم دعا رجلا فقال له : احمله على بعيرين . على بعير شعير وعلى بعير تمر . ورواه أحمد .

وأخرج الطبرانى عن أبى أمامة قال :

كانت امرأة ترافث الرجال (أى تكلمهم كلاما بذيئا) وكانت بذيئة فمرت بالنبى ﷺ وهو يأكل ثريدا على طربال فقالت : انظروا إليه يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد .

فقال النبى : وأى عبد أعبد منى؟

قالت : ويأكل ولا يطعمنى .

قال : فكلى .

قالت : ناولنى بيدك ، فناولها .

فقالت : أطعمنى مما فى فيك ، فأعطاها فأكلت فغلبها الحياء فلم ترافث أحدا حتى ماتت .

وأخرج أبو نعيم عن عائشة قالت:

كان رسول الله ﷺ مع أصحابه فصنعت له طعاما وصنعت له حفصة طعاما فسبقتنى حفصة فقلت للجارية: انطلقى فاكفئى قصعتها فأهوت أن تضعها بين يدى النبى فكفأتها فانكفأت القصعة فانتشر الطعام فجمعها النبى وما فيها من الطعام على الأرض فأكلوا. ثم بعثت بقصعتى فدفعها النبى الى حفصة فقال: خذوا ظرفا مكان ظرفكم وكلوا ما فيها فما رأيته فى وجه رسول الله ﷺ.

وحلمه ﷺ أوسع من أن يحاط بجوانبه، ولولا هذا الحلم ما استطاع أن يسوس شعبا كالعرب يأنف أن يطيع أو ينصاع أو يجرح، وصدق الله العظيم: ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

* * *

رابعًا - نماذج من كرمه:

إن الكرم فى الاسلام طريق من طرق الجنة، وإن البخل طريق النار. ولذلك فقد كان كرم رسول الله ﷺ لا يجارى. ولا يبارى. إن الله قد جعل خمس الغنائم إليه وكانت حصته عليه السلام من هذا الخمس: الخمس. وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة ولو أراد رسول الله ﷺ أن يجمع مالا لكان أكثر الخلق مالا. إن خمس غنائم حنين كان ثمانية آلاف من الغنم وأربعة آلاف وثمان مائة من الجمال وثمانية آلاف أوقية من الفضة وألف ومئتان من السبى. هذا الخمس الذى لرسول الله ﷺ وقرباه منه خمساه فكم نتصور غنى الرسول ﷺ لو أراد أن يجمع مالا من غزواته كلها من خيبر الغنية وقريظة وبنى النضير.

فإذا ما علمنا مقدار حق رسول الله ﷺ المعطى له من هذه الأموال فقط مثل هذا وإذا عرفنا أنه كان بالامكان استثماره وتنميته ثم علمنا بعد ذلك أن رسول الله ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودى وأنه أمر أن يوزع ميراثه إن كان على المسلمين، وأنه ليس لأقاربه من ميراثه شئ وأنه ما كان يلبس الا الخشن ولا ينام إلا على القليل، وأنه يجوع الأيام وأنه كان يخشى إذا بقى فى بيته مال فلم يوزعه على الناس، وكل ذلك قد مر منه أمثلة معك. أدركت أى كرم كان عنده ﷺ وأى نفس طاهرة هذه النفس

وأدركت أنها النبوة. وأن غير النبوة لا تجود بهذا الجود وترضى مع القدرة بهذه الحياة، إلا إذا كانت نفسا متأسية برسول الله ﷺ. وقد شهد على ذلك أقوى الناس شركا وعنادا وبغضا له ﷺ فأسلموا نتيجة ذلك ولعل فى ما ذكرناه غنية عن ضرب الأمثلة ولكن بالمزيد خيرا.

- أخرج الشيخان عن ابن عباس قال:

«كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقى جبريل عليه السلام. وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن قال: فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».

وأخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال: لا.

وأخرج الطبرانى عن الربيع بنت معوذ بن عفراء رضى الله عنها قالت: بعثنى معوذ بن عفراء بصاع من رطب عليه آخر من قثاء زغب الى رسول الله ﷺ وكان النبى ﷺ يحب القثاء وكانت حلية قد قدمت من البحرين فملأ يده منها فأعطانيها.

وفى رواية: فأعطانى ملء كفى حليا أو ذهبا. ورواه أحمد بنحوه وزاد: فقال: تحلى بهذا.

وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أم سنبلة رضى الله عنها: أنها أتت النبى ﷺ(١) فأبى أزواجه أن يقبلنها، فقلن: إنا لا نأخذ فأمرهن النبى ﷺ فأخذنها ثم أقطعها واديا.

وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال: «جاءت امرأة الى رسول الله ببردة فقالت: يا رسول الله جئتك أكسوك هذه فأخذها رسول الله وكان محتاجا اليها فلبسها فرآها عليه رجل من أصحابه، فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه أكسنيها، فقال: نعم. فلما قام رسول الله لامه أصحابه وقالوا: ما أحسنت حين رأيت رسول الله أخذها محتاجا إليها ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يسئل شيئا فيمنعه. قال: والله ما حملنى على ذلك إلا رجوت بركتها حتى لبسها رسول الله لعلى أكفن فيها».

---

(١) لعل المقصود أنها أتته بهدية.

وأخرج أحمد عن أنس أن رسول الله لم يسئل شيئا على الإسلام الا أعطاه قال: فأتاه رجل فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة قال: فرجع الى قومه فقال: «يا قوم أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة».

وزاد فى رواية: فإن كان الرجل ليجيء الى رسول الله ما يريد الا الدنيا فما يمسى حتى يكون دينه أحب اليه وأعز عليه من الدنيا وما فيها. وأخرج ابن عساكر فى قصة إسلام صفوان بن أمية عن عبد الله بن الزبير ما يلى:

«وخرج رسول الله قبل هوازن وخرج معه صفوان وهو كافر وأرسل اليه يستعيره سلاحه فأعار سلاحه مائة درع بأداتها.

فقال صفوان: طوعا أو كرها.

فقال رسول الله ﷺ: عارية رادة، فأعاره. فأمر رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين فشهد حنينا والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة فبينما رسول الله يسير فى الغنائم ينظر اليها – ومعه صفوان بن أمية – فجعل صفوان بن أمية ينظر الى شعب ملاء نعما وشاء ورعاء فأدام النظر اليه ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: أبا وهب يعجبك هذا الشعب؟

قال: نعم.

قال: هو لك وما فيه.

قال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا الا نفس نبى، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وأسلم مكانه».

هذه نماذج من الكرم تضيع بجانبها كل قصص الكرم المعروفة المشهورة عند الناس. كرم يجعل صاحبه يعيش حياة الجهد والمشقة والفاقة، حياة لا يطيقها أحد غيره هو وعياله، مع هذا الملك العريض الواسع والسلطان الكبير والواردات الكثيرة، وزيادة على ذلك أنه لو أراد من أموال المسلمين شيئا لخاصة نفسه لكان المسلمون فى ذلك كراما. وله الحق فى ذلك أليس هو مدبر شئونهم ومعلمهم، ولكن هذا كله لم يحدث، إنه كرم فى النفس يمنع صاحبه عن التطلع إلى أموال الآخرين، وكرم فى النفس لا يقوم معه من ملك صاحبه شئ. إنها أخلاق النبوة العربية الهاشمية المصطفاة سليلة إبراهيم عليه السلام.

خامسًا - نماذج من تواضعه وتياسره:

ننقل هنا ما كتبه صاحب كتاب بطل الأبطال تحت هذا العنوان مكتفين به فى هذا الفصل مع حذف بعض جمل المقال يقول:

صفة بينة لبطل الأبطال ﷺ كانت ولا تزال على مر الأجيال بادية واضحة فى طبعه الكريم تلك هى: التياسر والتواضع فبهما كان محمد صورة صادقة لكرامة الإنسان يؤتاها من صميم نفسه ولا يصطنعها مما يحيط به من مظاهر خادعة متكلفة، كان محمد التياسر نفسه يتمثل فى الرجل الكامل: وينبعث من أعماق قلبه، فيبدد ما يتجمع حوله من زخرف السيادة والملك وما يتبعهما من الرياء والزينة، وما يخدع به الناس من قول أو فعل، كان محمد قريبا سهلا هينا يلقى أبعد الناس وأقربهم وأصحابه وأعداءه وأهل بيته ووفود الملوك بلا تصنع ولا تكلف، بل بالحق سافرا فكانت أعماله تصدر طبيعية منها يدل على خلقه كما تدل الصورة على صاحبها واسمعوا إلى عدى ابن حاتم يقول وقد كان يظن أنه سيلقى ملكا فى المدينة: دخلت على محمد وهو فى المسجد فسلمت عليه فقال: من الرجل؟

فقلت: عدى بن حاتم.

فقام وانطلق بى الى بيته فوالله إنه لعامد بى إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف طويلا تكلمه فى حاجتها قال فقلت: والله ما هذا بملك. قال: ثم مضى بى رسول الله حتى إذا دخل بى الى بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها الى فقال: اجلس على هذه قال قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: بل أنت، فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض. قال: قلت فى نفسى: والله ما هذا بأمر ملك..

هذه طبيعة محمد لا طلاء عليها يأتيه عدى وقد وقع بعض أهله قبل ذلك أسرى لجيوشه، يأتيه مغلوبا فيجلسه على وسادة ويجلس هو على الأرض.

ثم انظروا اليه وقد مات ابنه ابراهيم، فكسفت الشمس فقال الناس: كسفت الشمس لموت ابراهيم. فيقوم فى المسجد قائلا: «إن الشمس والقمر من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد ولا حياته».

هذه هى النفس البريئة التى تعشق الحق للحق، وتتعالى فى تواضع عن استغلال وهم من الأوهام.

* * *

انظروا كذلك إليه كيف يستأذن على أحد أصحابه وكيف ينصرف؟

يقول قيس بن سعد :

زارنا رسول الله ﷺ فى منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله، فرد أبى ردا خفيا فقلت لأبى : ألا تأذن لرسول الله؟ فقال : زده حتى يكثر علينا من السلام، فقال ﷺ : السلام عليكم ورحمة الله، ثم رجع فاتبعه سعد فقال : يا رسول الله . . إنى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام فانصرف معه النبى، وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران فاشتمل بها ثم رفع يديه وهو يقول : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد .

فلما أراد الانصراف قرب له سعد حمارا فقال سعد : يا قيس اصحب رسول الله فصحبته فقال : اركب معى فأبيت فقال : إما أن تركب وإما أن تنصرف .

هذه زيارة سيد العرب والعجم لأحد أنصاره من كبار المدينة تمر فى غير حفل ولا ظهور . يذهب اليه ماشيا، ويعود على حمار يريد أن يردف عليه رفيقه . تلك السجية الظاهرة لم تحل دون أن يكون أمر محمد مطاعا وطاعته قربة . فإن يحسب الناس أن مظاهر الرياسة والسلطان لازمة لحسن الولاء واستدامة الطاعة، فلقد كان ولاء سعد والأنصار لمحمد المتواضع مضرب الأمثال فى تاريخ الدعوة الإسلامية (بل فى كل تاريخ) ولم تكن دعوته قيسا الى الركوب معه على الحمار أمرا غريبا، بل كانت هذه عادته يردف على حماره وبغلته وناقته ويعاقب مع رفاقه (المعاقبة أن يركب واحد مرة ويركب الثانى أخرى) قال ابن عباس : إن النبى ﷺ لماقدم مكة استقبله أغيلمة بنى عبد المطلب فحمل واحدا بين يديه وآخر خلفه . وقال معاذ : كنت رادف رسول الله على حمار يقال له : عفير، وجاء اليه رجل وهو يمشى فقال : اركب وتأخر على حماره فقال محمد : أنت أحق بصدر دابتك منى إلا أن تجعله لى، فقال الرجل : فإنى جعلته لك . ويقول جابر : كان رسول الله يتخلف فى السير، فيزجى الضعيف (أى يسوقه ليلحق الرفاق) ويردف، ويدعو لهم .

كان مرة فى سفر مع صحبه، فأرادوا أن يهيئوا لهم طعاما فقسم العمل بينهم، فقام يجمع الحطب فأرادوا أن يكفوه ذلك فأبى، لأن الله يبغض الرجل يتعالى على رفاقه. ولما وقف عليه أعرابى يرتجف خشية، ذكره أنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد. وخرج على جماعة من أصحابه يتوكأ على عصا، فقاموا له فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا..

وكان محمد يكره الاطراء والألقاب، انطلق إليه وفد بنى عامر، فلما كانوا عنده قالوا: أنت سيدنا، فقال: السيد الله، فقالوا: وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طولا، فقال: قولوا قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان.

كان فى تياسره جم التواضع، وافر الأدب يبدأ الناس بالسلام، وينصرف كله الى محدثه صغيرا كان أو كبيرا أو يكون آخر من يسحب يده إذا صافح. وإذا تصدق وضع الصدقة فى يد المسكين، وإذا أقبل جلس حيث ينتهى المجلس بأصحابه. لم يكن يأنف من عمل يعمله لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار، فكان يذهب الى السوق ويحمل بضاعته ويقول: أنا أولى بحملها.. ولم يستكبر عن عمل الأجير والفاعل سواء أكان فى بناء مسجد المدينة أو فى الخندق وهو أمير الجيش يدفع الأحزاب.

وكان محمد كذلك متواضعا فى ملبسه وسكنه. يلبس كعامة من حوله ويسكن، وقد واتته الدولة والسلطان فى صف من حجرات واطئة مبنية باللبن، بين كل حجرة وأخرى حائط من جريد النخل ملبس بالطين ومغطى بجلد أو كساء أسود من الشعر. وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويقبل عذر المعتذر، وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله بيده، ويخدم نفسه ويعقل بعيره، ويأكل مع الخادم ويقضى حاجة الضعيف والبائس.

كل هذا التواضع والتياسر الصادق من نفسه الطاهرة، والذى هو صورة صادقة له، لم ينقص من هيبته ولا محبته، وقد قيل فى وصفه: من رآه بداهة هابه ومن عاشره أحبه. فكانت علاقة أصحابه والناس به علاقة أدب جم وحب ووقار كامل، لم يتكبر ولكنه لم يرض سوء الأدب، وكثيرا ما بين لأصحابه كيف يتصرفون فى حضرته وفى خطابه.

يقول «وليم موير» فى وصف تواضعه وتياسره: «كانت السهولة صورة من

حياته كلها، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته فى معاملته لأقل تابعيه، فالتواضع والشفقة والصبر والايثار والجود صفات ملازمة لشخصه وجالبة لمحبة جميع من حوله فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنا، ولا هدية مهما صغرت وما كان يتعالى ويبرز فى مجلسه، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصه باقباله وان كان حقيرا، وكان إذا لقى من يفرح بنجاح أصابه أمسك يده وشاركه سروره. وكان مع المصاب والحزين شريكا شديد العطف حسن المواساة وكان فى أوقات العسر يقتسم قوته مع الناس، وهو دائم الاشتغال والتفكير فى راحة من حوله وهناءتهم».

ولسنا فى تاريخ محمد بحاجة الى أحد، فان مما اختص به من بين رسل العالم وأبطاله وضوح حياته وجلاءها من جميع نواحيها. وإنما سقنا عبارة «موير» هنا لشعورنا أنها صادرة عن إعجاب صادق ولو أننا درسنا سيرة محمد الدراسة اللائقة بها، لكان اليوم حيا بين أصحابه، ولوجدنا الصورة التى طبعها على الوجوه بعمله وقوله لا تزال واضحة.وضوح نفسه العظيمة، المتحلية بأخلاق لا يغطيها الطلاء ولا يحجبها رياء ولا ترى إلا على حالة واحدة فى الليل والنهار وفى السر والعلانية وفى الشدة والرخاء وفى الضعف والقوة، فى السوق وهو فى شبابه وفى الشيخوخة وعلى عرش النبوة والملك.

وكان محمد بأخلاقه شخصية من اليسر والتواضع لا تبديل ولا تغيير فيها، هى النفس التى اتصلت بالسماء وعاشت على الأرض دانية الى الناس محببة اليهم فى كل أطوار حياته. كان بطل الأبطال ﷺ المثل الأعلى الذى نحن اليوم أحوج ما نكون إليه فى نطاق الأخوة الاسلامية، لا يرفع من شأن أحدهم غنى أو جاه أوحسب أو نسب وإنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى والناس من آدم وآدم من تراب».

وأخيرا وبعد أن ضربنا لك أمثلة على خمس من أمهات أخلاق رسول الله ﷺ وضح بما لا يقبل الشك أن العالم لم يعرف ارتفاعا فى الاخلاق فى كلياتها وجزئياتها وأبعادها. بشمولها كله كما عرفه فى رسول الله ﷺ وكما شهد بذلك القرآن العظيم. وأن منتهى آمال الأخلاقيين أن يقلدوه بخلق واحد من أخلاقه وهم لا يرتقون بهذا الخلق الا الى بعض ما هو عنده ﷺ. وأن الناس جميعا بكل ما أوتوا من أخلاق لو جمعت أخلاقهم الحميدة فانهم لا يبلغون أن يحيطوا الا بالأقل مما كان (عليه

السلام). هذا مع أن الناس لا تخلص أخلاقيتهم مما يعابون عليه بحق. أما رسول الله ﷺ فكان الأخلاق كلها محضا. ليس فيها ما يخالط مما يلام عليه الانسان، إلا إذا كان اللائم أعمى البصيرة، يرى الخير شرا والشر خيرا، أو حاسدا أو متكبرا أعماه الحسد والكيد عن رؤية الحقيقة التي لا تغيب عن أحد. وإن أحدا عرف الرسول ﷺ في زمانه من عدو أو صديق إلا وأسلم في ضميره أن الخلق المحمدي لا يرقى إليه مطعن، وقد مر معك كثير من شهادة الأعداء وهم أعداء بذلك. وقديما قال أحد آباء زوجاته المشركين وقد بلغته خطبته لبنته: «هو الفحل لا يجدع أنفه». وقال عكرمة ابن أبي جهل بعد حربه الطويل لرسول الله هو وأبوه في لحظة إسلامه.

«أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبد الله ورسوله وأنت أبر الناس وأصدق الناس وأوفى الناس، قال عكرمة: أقول ذلك وأني لمطأطئ رأسي استحياء منه».

* * *

وبعد فإلى الفقرة الثانية:

٢- رجل الأسرة الأول: أبًا وزوجًا

١- التعريف بأزواجه عليه السلام:

قال ابن هشام: وكن تسعا: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وسودة بنت زمعة بن قيس، وزينب بنت جحش بن رئاب، وميمونة بنت الحارث بن حزن، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، وصفية بنت حيي بن أخطب فيما حدثني غير واحد من أهل العلم.

وكان جميع من تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة. خديجة بنت خويلد وهي أول من تزوج. زوجه إياها أبوها خويلد بن أسد ويقال أخوها عمرو بن خويلد وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة فولدت لرسول الله ولده كلهم إلا إبراهيم وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم حليف بني عبد الدار فولدت له هند بن أبي هالة وزينب بنت أبي هالة وكانت قبل أبي هالة عند عتيق

ابن عابد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فولدت له عبد الله وجارية. وتزوج رسول الله عائشة بنت أبى بكر الصديق بمكة وهى بنت سبع سنين وبنى بها بالمدينة وهى بنت تسع سنين أو عشر ولم يتزوج رسول الله بكرا غيرها. زوجه إياها أبوها أبو بكر وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم. وتزوج رسول الله سودة بنت زمعة.. زوجه إياها سليط بن عمرو ويقال: أبو حاطب بن عمرو.. وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند السكران بن عمرو.

وتزوج رسول الله زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية زوجه إياها أخوها أبو أحمد بن جحش وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولى رسول الله ففيها أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ **فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا** ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وتزوج رسول الله أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومية واسمها هند زوجه إياها سلمة بن أبى سلمة ابنها وأصدقها رسول الله فراشا حشوه ليف وقدحا وصفحة ومجشة (أى رحى) وكانت قبله عند أبى سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله فولدت له سلمة وعمر وزينب ورقية.

وتزوج رسول الله حفصة بنت عمر بن الخطاب زوجه إياها أبوها عمر بن الخطاب وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند خنيس ابن حذافة السهمى.

وتزوج رسول الله أم حبيبة واسمها رملة بنت أبى سفيان بن حرب زوجه إياها خالد بن سعيد بن العاص وهما بأرض الحبشة وأصدقها النجاشى عن رسول الله أربع مائة دينار وهو الذى كان خطبها على رسول الله وكانت قبله عندعبيدة الله بن جحش الأسدى.

وتزوج رسول الله جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار الخزاعية كانت فى سبايا بنى المصطلق من خزاعة فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس الأنصارى فكاتبها على نفسها فأتت رسول الله تستعينه فى كتابتها فقال: هل لك فى خير من ذلك. قالت: وما هو؟ قال: أقضى عنك كتابتك وأتزوجك فقالت: نعم، فتزوجها..

وتزوج رسول الله صفية بنت حيى بن أخطب سباها من خيبر فاصطفاها لنفسه

وأولم رسول الله وليمة ما فيها شحم ولا لحم كان سويقا وتمرا وكانت قبله عند كنانة ابن الربيع بن أبى الحقيق.

وتزوج رسول الله ميمونة بنت الحارث بن حزن.. زوجه اياها العباس بن عبد المطلب وأصدقها العباس عن رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند أبى رهم بن عبد العزى.. ويقال: إنها التى وهبت نفسها للنبى وذلك أن خطبة النبى انتهت اليها وهى على بعيرها فقالت: البعير وما عليه لله ولرسوله فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾

[الأحزاب: ٥٠]

وتزوج رسول الله زينب بنت خزيمة بنت الحارث.. وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم زوجه إياها قبيصة بن عمرو الهلالى وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، وكانت قبل عبيدة عند جهم ابن عمرو بن الحارث وهو ابن عمها.

فهؤلاء اللاتى بنى بهن رسول الله إحدى عشرة فمات قبله منهن اثنتان خديجة بنت خويلد وزينب بنت خزيمة. وتوفى عن تسع قد ذكرناهن فى أول هذا الحديث.

واثنتان لم يدخل بهما أسماء بنت النعمان الكندية تزوجها فوجد بها بياضا فمتعها وردها إلى أهلها. وعمرة بنت يزيد الكلابية وكانت حديثة عهد بالكفر فلما قدمت على رسول الله استعاذت من رسول الله فقال رسول الله: منيع عائذ الله، فردها إلى أهلها ويقال: إن التى استعاذت من رسول الله كندية بنت عم لأسماء بنت النعمان وقال: إن رسول الله دعاها فقالت: إنا قوم نؤتى ولا نأتى فردها رسول الله الى أهلها.

القرشيات من أزواج النبى ست: خديجة.. وعائشة.. وحفصة.. وأم حبيبة.. وأم سلمة.. وسودة بنت زمعة.

والعربيات غيرهن ست: زينب بنت جحش بن أسد بن خزيمة.. وميمونة بنت الحارث بن هلال بن عامر بن صعصعة بن قيس بن عيلان.. وزينب بنت خزيمة بن

هلال بن عامر بن صعصعة . . وجويرية بنت الحارث ابن أبى ضرار الخزاعية، ثم المصطلقية . . وأسماء بنت النعمان الكندية . . وعمرة بنت يزيد الكلابية .

ومن غير العربيات : صفية بنت حيى بن أخطب من بنى النضير .

* * *

ويقول الكافرون : إن هذا يخدش نبوة محمد ﷺ أن يكون له كل هذا العدد من الزوجات .

ونقول : إن الذين يقولون هذا الكلام أحد ثلاثة : إما إنسان له دين غير الإسلام والذى له دين : إما أن يكون دينه يقول بتعدد الزوجات أولا .

أو إنسان لا يؤمن بدين .

أما الانسان الذى لا يؤمن بدين فهذا عمليا يستعمل آلاف النساء استعمال الزوجات، ولا يرى فى ذلك بأسا ولا يتحرج أن يضاجع أى امرأة ولو كانت أخته، ولو كانت زوجة صاحبه، وما أكثر ما سمعنا بأمثال هذا من هؤلاء . فلا محل لكلام هؤلاء ولا يناقشون أصلا، لأنه ليس لديهم مقاييس يمكن أن تكون معقولة يناقشهم الانسان عليها .

وأما الذين لهم دين يقول بالتعدد المطلق فهؤلاء كذلك لا نقاش معهم إذ ما أبيح لهم كيف يحرمونه على غيرهم .

وأما الذين لهم دين يقول بعدم جواز التعدد كالنصارى الحاليين فإننا نقول لهم : أما أن عدم التعدد هو شريعة الله فهذا غير صحيح بدليل تاريخ الكنيسة عندكم وأما أن زواج الرسول الله ﷺ بهذا العدد من النساء يتنافى مع جلال النبوة . فان الكتب التى بين أيديكم وتؤمنون بها وهى كتب العهد القديم، تذكر أن من الأنبياء الذين تؤمنون بنبوتهم من تزوج بنساء أكثر بكثير من نساء سيدنا محمد عليه السلام . وقد ذكرنا أمثلة من هذا فى مبحث الشهادات فلماذا تتناقضون؟

غير محمد ﷺ من الأنبياء إذا تزوج أكثر منه فذلك لا يتنافى مع جلال النبوة أما هو فلا؟

إن هذا عمى عن الحقيقة وتجاهل لها، فإن فرط الرجولة ليس عيبا فى الرجل بل كمال فيه إذا بقيت ضمن الإطار الذى حدده الله.

إن الأنبياء منفذون لأوامر الله لا يخرجون عنها، فإذا ما صحت نبوة نبى وتصرف ضمن أوامر الله فلا حرج عليه وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى فى قصة زواج النبى ﷺ من زينت بنت جحش: ﴿ **مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً** ﴾ [الاحزاب: ٣٨].

* * *

إن ظاهرة الرسالة ظاهرة نادرة فى التاريخ البشرى وظهورها بمحمد ﷺ هو الظهور الأخير لذلك فقد خص الله رسوله ﷺ ببعض الأحكام وكل ما خص به ﷺ كان فيه نوع من التكليف أكبر، ونوع من العبء أكبر، وحتى هذه القضية قضية تعدد زوجاته، كان غرمها أكبر من غنمها، وعبؤها أكبر من سهولتها، لما يترتب على ذلك من القيام بحقوق هذا العدد الكثير.

وسياستهن وتدبير أمورهن من جهد، مع كثرة أعباء السيد الرسول ﷺ الأخرى من جهاد وتعليم وتدبير، و...

ولو تأمل الانسان فى هذا الموضوع بعمق لوجد أنه دليل على النبوة والرسالة مستقل وذلك لما فيه من الحكم الكثيرة والمصالح المتعددة:

فلقد أحل الله لرسوله ﷺ أن يتزوج ما شاء بقوله:

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

ثم أخيرا أنزل:

﴿ **لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ** ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

إذن بعد أن تزوج ما تزوج منع من الزواج فلم يتزوج بعد وجعل الله زوجاته أمهات المؤمنين فلا يجوز لأحد أن يتزوج منهن بعده ﷺ فما الحكمة فى ذلك كله؟

١- إن الرسول ﷺ تزوج الكبيرة والصغيرة والوسط، والمرأة فى كل طور من أطوارها لها مشاكلها. وسيرة الرسول ﷺ العملية وأجوبته الدائمة بما يتفق مع كل طور، ونقل هذا كله الى الأمة الاسلامية مما تقتضيه مهمة الرسالة التى جعلها الله عز وجل مبينة لكل شئ مما يلزم الانسان.

٢- أن المرأة فى الاسلام مكلفة كالرجل، ولها وضعها الخاص الذى تختلف فيه عن الرجل. ووجود هذا العدد من النساء يساعد على نقل كل ما له علاقة فى المرأة الى الأمة الاسلامية. بحيث يكون أمهات المؤمنين أسوة للنساء فى العالم على اختلاف أحوالهن ومشاربهن.

٣- زواج الرسول ﷺ من هؤلاء النسوة الطاهرات وفيهن القرشية وغير القرشية وفيهن ذات الأصل اليهودى، وفيهن من كان أبواها مهاجرين، وفيهن من كان أبواها كافرين وقت زواجه منها، ومنهن الصغيرة جدا، ومنهن الكبيرة جدا حتى لا يرى المسلم حرجا فى الزواج من أى امرأة أحلها الله له ما دامت متوفرة فيها شروط الحل. وحتى لا يرى المسلم حرجا فى التعدد وهو كما سنرى فى بعض الأحوال ضرورة لابد منها.

٤- والرسول ﷺ الذى افترض الله على المسلمين محبته، قد أستل بهذا الزواج سخائم قلوب ما كانت لتزول لو لا هذه الصلات من القرابة.

٥- إن صلة الوصل فى الغالب فيما له علاقة بالنساء كانت زوجات رسول الله ﷺ وكثرة زوجاته يجعل دائرة اتصال المسلمات به ﷺ أكثر، وإيصال الأحكام الى النساء متيسرا، وكل واحدة منهن يألفها بعض النساء بجامع القرابة أو السن، ولو لا ذلك ما استطاعت امرأة واحدة أن تستوعب كل شئون النساء ولو لا ذلك ما رأينا آلاف الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ من طرق زوجاته يتحدثن فيها عن آلاف الأمور كانت تبقى غامضة أو غير معروفة.

٦- والاسلام قد أتى بمفاهيم جديدة ومثل كاملة مما له علاقة فى المرأة وكان

لابد أن تهضم هذه المثل الجديدة مجموعة كبيرة من النساء لضمان استبقائها واستمرارها وتأكيدها وهى قلب لمفاهيم سائدة، وأوضاع فاسدة، فكان هذا العدد من نساء النبى ﷺ يحقق هذه الحكمة.

٧- ثم كان هذا الزواج حلاً لابد منه فى بعض الحالات.

فأم سلمة المخزومية بنت سيد مخزوم المهاجرة الى الحبشة والى المدينة والتى استشهد زوجها، وليس لها أحد وهى بنت زاد الراكب أبى أمية المخزومى وقد خطبها أبو بكر وعمر فرفضت. فهل تبقى وحدها أرملة وهى التى تحملت من أجل الإسلام ما تحملت، إنه ليس هناك حل أبر وأكرم من ضم رسول الله ﷺ لها الى نسائه وقد رضيت.

ورملة بنت أبى سفيان زعيم قريش بل العرب كلها ضد رسول الله ﷺ والتى أسلمت وهجرت أباها وقومها وهاجرت الى الحبشة مع زوجها ثم تنصر زوجها وارتد ومات كافرا، هذه تترك لمن؟ أليست مكافأتها فى مكانتها أن تكون زوجة رسول الله ﷺ وكم سيكون لهذا أثره فى نفس العدو الأكبر أبيها.

وزينب بنت جحش التى زوجها رسول الله ﷺ من متبناه زيد ولم تستقم حياتهما وأراد الله أن يهدم قاعدة التبنى عند العرب التى لا تقوم على أساس معقول فهدمها بشكل جذرى يوم أمر رسول الله ﷺ أن يتزوج زينب مطلقة متبناه زيد. وجويرية بنت الحارث بنت سيد قومها، وقومها من أعز بيوت العرب عرضا، وقد أسر رجال قومها، وسبى نساؤهم، فتزوجها رسول الله ﷺ فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ وأفرجوا وأعتقوا كل من له علاقة بها.

وصفية بنت حيى كان أبوها ملك اليهود تقريبا وزوجها كذلك من ساداتهم وقد هلك أبوها وأخوها وزوجها وكان من سنته ﷺ الرحمة بعزيز قوم ذل فضمها الى نسائه رحمة بها، واستل ما بفؤادها من حقد كان يمكن أن يعذبها مدى الحياة، وبزواجه بعائشة وحفصة وثق الصلة أكثر بينه وبين أعظم رجلين بعده من أمته وهكذا.

٨- وفتح بهذا الزواج ﷺ لزعماء أمته أفقا جديدا لا ينبغى أن يغيب عنهم

أثناء العمل المتواصل. وهو تقوية الصلات مع الآخرين بواسطة الزواج. وتوهين حقد المغلوبين بهذه الواسطة، وقد رأينا المسلمين استفادوا من هذا الجانب استفادة كبيرة.

٩- ثم هو بهذا الزواج وبسلوكه العملي العادل يبين الطريق الصحيح للسلوك الذى ينبغى أن يسلكه من تعددت زوجاته، بحيث لا تختل قيم الحياة، ولا تشعر المرأة بعذاب الظلم، ويعرف النساء على حقوقهن وحدود هذه الحقوق.

وبظهور هذه الحكم وواقعيتها التى ذكرناها والحكم التى لم نذكرها نرى أن هذا الزواج أدل على النبوة.

وسنرى هذا أوضح عندما ندرس سيرته معهن ﷺ.

* * *

رأينا أن كل امرأة تزوجها رسول الله ﷺ كان فى زواجها مصلحة وحكمة وخلق عظيم وإنسانية عالية، تلمح بها تصرفات النبوة ومثاليتها وأخلاقيتها، وسنرى فى هذه الفقرة ونحن نستعرض الخطوط العريضة لسيرته معهن ﷺ. أن كل خط من هذه الخطوط دليل على النبوة وأرقى أمثلة الأسوة.

١- أول هذه الخطوط العدل فى السكن والنفقة والكسوة والمبيت والزيارات والوقت. كان بينهن الجميلة جدا والكبيرة والشابة والعادية الجمال، وما كان يصرفه شئ من الميزات عن العدل، لكل واحدة منهن ليلة، وإذا زار إحداهن زار بعد ذلك جميعهن وحتى وهو فى مرضه الأخير وهو أحوج إلى الاستقرار فى بيت واحد لم يرض أن يستقر فى بيت عائشة الا بعد أن أذن له الجميع بذلك. ومع هذه الدقة فى العدل كان يستغفر الله من عدم عدله فى المحبة. إذ لا سلطان له على قلبه فيها، بل السلطان لله فكان يقول:

«اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك».

وكان إذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه. قالت أم سلمة: «لما تزوجنى رسول الله ﷺ أقام عندى ثلاثا وقال: إنه ليس بك هوان على أهلك. إن شئت سبعت لك وإن سبعت لك سبعت لنسائى».

وعن أنس، من السنة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها ثم قسم واذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثا ثم قسم.

٢- وثانى هذه الخطوط: التكافؤ فى الانسانية. فمن سنن الاسلام أن المرأة كالرجل فى الإنسانية إلا أن زوجها رئيسها ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وهذا شئ غير مألوف لا عند العرب ولا فى زمان نزول الإسلام ولكنه دين الله.

ومن أمثلة هذا التكافؤ فى حياة الرسول ﷺ العملية، انه كان ينزل على مشورة بعض نسائه وأنه كان يسمح لهن بمناقشته، وإذا تزوج امرأة فبرضاها.

يوم الحديبية أمر المسلمين بأن يحلقوا وينحروا بعد الصلح ليتحللوا. فبقوا واجمين فدخل على زوجه أم سلمة وهو متأثر فسألته، فأخبرها فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟

أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، فلما رأى المسلمون ما صنع النبى ﷺ زاح عنهم الذهول فقاموا عجلين ينحرون هديهم ويحلق بعضهم بعضا حتى كاد بعضهم يقتل الآخر.

وقال عمر: فتغضبت يوما عل امرأتى فاذا هى تراجعنى فأنكرت أن تراجعنى فقالت: ما تنكر أن أراجعك فوالله ان أزواج النبى ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم الى الليل قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم. قلت: وتهجره إحداكن اليوم الى الليل؟ قالت: نعم. قلت: «قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر».

وقال أنس فى الحديث عن صفية: «فكان ﷺ يحوى لها وراءها بعباءة ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفية رضى الله عنها رجلها على ركبته حتى تركب».

فاذا ما عرفت إنه فى عصر الفروسية فى أوروبا الذى يعتبر العصر الذهبى للمرأة

ما كانت تجرؤ امرأة على أن تقدم مشورة لزوجها. أدركت أن تصرف محمد رسول الله ﷺ ليس وليد بيئته ولا زمانه وإنما هو تصرف الأنبياء.

ينقل العقاد هذه الحادثة ويعلق عليها من كتاب لغربى يتحدث عن المرأة فى عصر الفروسية قال:

«يروى (أى صاحب الكتاب) فيها أن الملكة «بلانشفلور» ذهبت إلى قرينها الملك «بيبين» تسأله معونة أهل اللورين، فأصغى اليها الملك ثم استشاط غضبا ولطمها على أنفها بجمع يده. فسقطت منه أربع قطرات من الدم وصاحت تقول: «شكرا لك. إن أرضاك هذا فأعطنى من يدك لطمة أخرى حين تشاء».

ولم تكن هذه حادثة مفردة، لأن الكلمات على هذا النحوكثيرا ما تتكرر كأنها صيغة محفوظة، وكأنما كانت اللطمة بقبضة اليد جزاء كل امرأة جسرت فى عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة».

ولكن المظهر الأعظم من مظاهر هذا التكافؤ. ان رسول الله ﷺ ما كان يستنكف داخل بيته أن يقوم بحاجته، وأن يخدم نفسه، بل انه كان يقوم احيانا بحاجة أهله، وكان يقول:

«خدمتك زوجتك صدقة»، وإذن فقيام المرأة بشأن البيت ليس عارا يترفع عنه الرجل، بل هو كمال يتطاول إليه الرجل ولا يأنف، وكيف يأنف المسلم وقد فعله رسول الله ﷺ.

٣- والمرأة تحب من زوجها أن يكون جميلا متجملا، وأن يقضى حقها الجنسى، وأن يكون لطيفا معها مؤنسا لها، وهذا كله خط آخر من خطوط معاملة الرسول ﷺ لأزواجه.

فقد كان أجمل الناس وكان مع هذا الجمال أنيقا، لا يطيق ما يتنافى مع هذه الأناقة مع بساطة المظهر وكان يقول: «اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلوا ذلك فزنت نساؤهم». ويقول: «فاذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا

يعجلها حتى تقضى حاجتها » وكان يفعل هذا كله وأكثر منه فقد ورد فى وصفه إذا خلا مع أهله :

« كان ألين الناس ضحاكا بساما » .

« كان أفكه الناس مع نسائه » .

« كان رسول الله ﷺ يدور على نسائه فى الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشر . قيل لأنس : وكان يطيقه؟

قال : كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين فى الجماع » .

وكان من آداب الاسلام أنه إذا كان للرجل زوجة أن يعفها . أى أن يجامعها حتى لا تشعر بحاجة الى الرجال .

وجعل رسول الله ﷺ مقياس الأخلاق معاملة الرجل لزوجته إذ أنها الضعيفةتحت يده، الدائمة العشرة له، فكان من كلامه : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » وما ضرب امرأة قط وكان يؤنب من يضرب :

« أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره » .

٤ – والخط العريض الرابع فى معاملته لزوجاته حسن سياستهن وتأديبهن :

كن يغرن وكان يتحمل هذه الغيرة إلا أن تخرج عن الخط السوى فيؤدب :

تقول عائشة رضى الله عنها : ما رأيت صانعة طعام مثل صفية صنعت لرسول الله ﷺ طعاما وهو فى بيتى، فأخذنى أفكل – أى قشعريرة – فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الاناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت؟ قال : إناء مثل إناء وطعام مثل طعام .

وكان يدارى قلوبهن حتى تصفو . تقول صفية : وما كان أبغض الى من رسول الله ﷺ قتل أبى وزوجى فما زال يعتذر الى وقال : يا صفية . . إن أباك ألب على العرب وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفسى .

وكن يأخذن حريتهن فى الكلام فيسمع ويرد ويؤدب .

كان رسول الله ﷺ يحفظ لخديجة ذكراها بشكل منقطع النظير فهو آية الوفاء فى دنيا المروءة وكان من وفائه لها أنه يبر كل امرأة كانت لها صلة بخديجة وأنه كان يذكرها بكل خير حتى أن عائشة لم تغر من امرأة كما غارت من خديجة وهى متوفاة قالت له مرة:

خديجة.. خديجة.. لكأنما ليس فى الأرض امرأة الا خديجة. فتركها فترة ثم عاد وأمها أم رومان عندها فقالت له أمها: يا رسول الله ما لك ولعائشة؟ إنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها. فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتبا وهو يقول لها:

ألست القائلة: كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة؟

وقالت له مرة: ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيرا منها فأسكتها قائلا:

«والله ما أبدلنى الله خيرا منها. آمنت بى حين كذبنى الناس، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها».

وقالت: دخل على يوما رسول الله ﷺ فقلت: أين كنت منذ اليوم؟ قال: يا حميراء كنت عند أم سلمة. قلت: ما تشبع من أم سلمة؟ فتبسم ثم قلت: يا رسول الله ألا تخبرنى عنك لوأنك نزلت بعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رعيت أيهما كنت ترعى؟ قال: التى لم ترع قلت: فأنا ليس كأحد من نسائك، كل امرأة من نسائك كانت عند رجل غيرى، فتبسم عليه السلام.

وكن يمزحن فيشاركهن سرورهن.

أخرج أبو يعلى عن عائشة رضى الله عنها قالت: أتيت النبى ﷺ بحريرة قد طبختها له فقلت لسودة رضى الله عنها والنبى ﷺ بينى وبينها: كلى فأبت فقلت: لتأكلين أو لألطخن وجهك فأبت فوضعت يدى فى الحريرة فطليت وجهها فضحك النبى ﷺ فوضع بيده لها وقال لها: ألطخى وجهها فضحك النبى ﷺ لها.

وفى رواية: فخفض لها ركبته لتستقيد منى فتناولت من الصفحة شيئا فمسحت به وجهى ورسول الله ﷺ يضحك.

٥- والخط العريض الخامس أنه صلى الله عليه وآله وسلم رفعهن الى أخلاق النبوة ولم يستطعن أن يحدن به عن طريقه، وأعظم حادث يصور لنا هذا الوضع هو حادث تخييرهن إذ طلبن أن يوسع عليهن فى المعيشة والنفقة، وكانت سنة رسول الله ﷺ الإعراض عن الدنيا وطلب الآخرة، فكانت النتيجة أن خيرهن بين البقاء عنده، والرضا على هذه الحياة الهادفة الى اليوم الآخر. أو الطلاق، وأمرهن بيدهن، وهذا غاية العدل وغاية الحزم.

وهذه هى القصة كما يرويها بعض الصحابة:

أخرج أحمد عن جابر رضى الله عنه قال:

- أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس والنبى ﷺ جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلا والنبى ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ﷺ ساكت فقال عمر: لأكلمن النبى لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها فضحك النبى حتى بدت نواجذه وقال: هن حولى يسألننى النفقة، فقام أبو بكر الى عائشة ليضربها وقام عمر الى حفصة كلاهما يقولان:

تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة فقال: «إنى أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك، قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً** ﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

قالت: أفيك أستأمر أبوى؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك أن لا تذكر

لامرأة من نسائك ما اخترت فقال ﷺ : إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ولكن بعثنى معلما ميسرا لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت الا أخبرتها .

وروى أحمد من حديث طويل عن ابن عباس عن عمر قال :

فقلت : الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفقن نساؤنا يتعلمن من نسائهم فتغضبت على امرأتى يوما فإذا هى تراجعنى فأنكرت أن تراجعنى فقالت :

ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج رسول الله ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم الى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر، أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هى قد هلكت . فتبسم رسول الله فقلت : يا رسول الله فدخلت على حفصة فقلت : لا يغرك أن كانت جارتك هى أوسم وأحب الى رسول الله ﷺ منك فتبسم أخرى فقلت : أستأنس يا رسول الله؟

قال : نعم .

فجلست فرفعت رأسى فى البيت فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر إلا أهبة (جلودا) ثلاثة فقلت : ادع يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالسا ثم قال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا .

فقلت : استغفر لى يا رسول الله .

وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل .

وفى كل ما نقلناه لك من هذه الخطوط تجد الزوج المثالى والقدوة العليا فى كل أمر . ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذه الفقرة أن نذكر أن الرسول ﷺ الذى كان عنده هذا العدد من النساء، والذى كان يقوم بواجبه تجاههن، والذى كان يعطيهن من ذاته ما رأينا . هو الذى كان يقوم بالأعباء الضخمة التى لم يتحمل مثلها رجل غيره . من عبادة إلى سياسة إلى قتال إلى تدبير أمر، ومن عادة الناس أن يشغلهم شئ من هذا عن

أهليهم، ولكنه الكمال عند رسول الله ﷺ حيث تقوم الواجبات كلها ومع الواجبات غيرها ولا يؤثر القيام بإحداها على غيره وذلك من دلائل النبوة والرسالة.

وأخيرا:

يقول العقاد: قال لنا بعض المستشرقين إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية.

قلنا: إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط، فلا ينبغي أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء.

ونحن قبل كل شئ لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة، ويشعر بمتعتها: هذا سواء الفطرة لا عيب فيه، وما من فطرة هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين، والتقاء الذكر والأنثى، فهي الغريزة التي تلهم الحي في كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى.

أرأيت الى السمك وهو يعبر الماء الملح في موسمه المعلوم فيطوى ألوفا من الفراسخ ليصل الى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه؟ أرأيت الى العصفور وهو يبني عشه ويعود من هجرته الى وطنه؟ أرأيت الى الزهر وهو يتفتح ليغرى الطير والنحل بنقل لقاحه؟

أرأيت الى سنة الحياة في كل طبقة من طبقات الأحياء؟ ما هي سنتها إن لم تكن هي سنة الألفة بين الجنسين؟ وأين يكون سواء الفطرة إن لم يكن على هذا السواء؟

فحب المرأة لا معابة فيه.

هذا هو سواء الفطرة لا مراء.

وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه وحتى يشغل المرء عن غرضه، وحتى يكلفه شططا في طلابه. فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور في جميع الطباع.

فمن الذي يعلم ما صنع النبي في حياته، ثم يقع في روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير؟

من من بناة التاريخ قد بنى فى حياته وبعد مماته تاريخا أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية، والدول الاسلامية؟ ومن ذا الذى يقول إن هذا عمل رجل مشغول؟

عم شغلته المرأة؟

ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو محمد فى مسعاه؟

فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ويعطى المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب. ورسالة محمد إذن هى الرسالة التى يتلقاها أناس خلقوا للحياة، ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها، فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة، فيما يخاطب به عامة الناس فى عامة العصور. وأعجب شئ أن يقال عن النبى أنه استسلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن فى الطلاق لأنهن طلبن اليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها.

نساء محمد يشكين قلة النفقة والزينة، ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات.

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه؟ أما كان عليه يسيرا أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين، وهم موقنون أن إرادة الرسول من إرادة الله؟

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال إنه كان يفرط فى ميله الى النساء؟ هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سننه أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه؟ لم يكلفه شيئا من ذلك، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها، ولم نر هنا رجلا تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهرون. بل رأينا رجلا يغلب تلك الملذات فى طعامه ومعيشته وفى ميله الى نسائه. فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه، ولو كانت هذه الضريبة بسطة فى العيش قد ينالها أصغر المسلمين، ولا شك فى قدرة النبى عليها لو أراد.

* * *

وهكذا نبحث عن الرجل الذى توهمه المشهرون من مؤرخى أوروبا فلا نرى الا صورة من أعجب الصور التى تقع فى وهم واهم.

نرى رجلا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه.

ونرى رجلا تألبت عليه نساؤه لأنه لا يعطيهن الزينة التى يتحلين بها لعينيه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه.

ونرى رجلا آثر معيشة الكفاف والقناعة على إرضاء نسائه بالتوسعة التى كانت فى وسعه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه.

ذلك كلام لو شاء المشهرون أن يرسلوه كلاما مضحكا مستغربا لأفلحوا فيما قالوه.. أقبح فلاح.

ويزيد فى غرابته أن الرجل الذى توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولا قبل زواجه ولا بعد زواجه فتخبط فيه الظنون ذلك الخبط الذريع. فمحمد كان معروف الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة.

كان معروفا من صباه إلى كهولته، فلم يعرف أنه استسلم للذات الحس فى ريعان صباه. ولم يسمع عنه أنه لها كما كان يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح.. بل عرف بالطهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة.. وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شانئيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات: تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذى كان من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم الى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات.. كلا لم يقل أحد هذا قط من شانئيه وهم عديد لا يحصى ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل.

* * *

إلا أن المشهرين المتقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التى سجلت لنا بأدق تفصيلاتها، ولم يذكروا الا شيئا واحدا حرفوه عن معناه ودلالته،

ليفتروا على النبى ما طاب لهم أن يفتروه وذلك أنه جمع فى وقت واحد بين تسع زوجات.

نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة فى شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق فى غير مشقة عندهم ولا معابة.

نسوا أنه بقى الى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف فى طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور إليه بين الأسر وبين الفتيات.

ونسوا أنه لما تزوج فى تلك السن كان زواجه بسيدة فى نحو الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين.

ونسوا أنه اختار أحسابا فى حاجة إلى التألف أو الرعاية ولم يختر حمالا مطلوبا للمتاع.

ونسوا أن الرجل الذى وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع فى بعض أيامه من خبز الشعير ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه.. ولو شاء لما كلفه ارضاؤهن غير القليل بالقياس إلى ما فى يديه.

نسوا كل هذا وهو ثابت فى التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتى جمع بينهن عليه السلام فلماذا نسوه؟

نسوه لأنهم أرادواأن يعيبوه وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغضاء عنها، لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها.

* * *

وبعد فهل رأيت زوجا مثل محمد ﷺ بين الأزواج: إنك لن ترى، وكذلك لن ترى مثله أبا بين الآباء:

أخرج مسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال:

ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ: قال: كان إبراهيم (أى

ابنه الصغير) مسترضعا له فى عوالى المدينة فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وأنه (أى البيت) ليدخن وكان ظئره قينا فيأخذه فيقبله ثم يرجع.

وأخرج أبو يعلى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: رأيت الحسن والحسين (رضى الله عنهما) على عاتقى النبى ﷺ فقلت نعم الفرس تحتكما. فقال النبى ﷺ: ونعم الفارسان هما.

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنه قال: خرج النبى ﷺ حامل الحسن (رضى الله عنه) على عاتقه فقال له رجل: يا غلام نعم المركب ركبت، فقال النبى ﷺ ونعم الراكب هو.

وأخرج الطبرانى عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ يصلى فجاء الحسن والحسين أو أحدهما فركب على ظهره فكان إذا رفع رأسه قال بيده فأمسكه أو أمسكهما قال: نعم المطية مطيتكما.

وأخرج الطبرانى عن جابر قال: دخلت على النبى ﷺ وهو يمشى على أربعة وعلى ظهره الحسن والحسين (رضى الله عنهما) وهو يقول:

« نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما ».

وأخرج الطبرانى عن جابر رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فدعينا الى طعام فاذا الحسين (رضى الله عنه) يلعب فى الطريق مع صبيان فأسرع النبى ﷺ أمام القوم ثم بسط يده فجعل حسين يفر ههنا وههنا فيضاحكه رسول الله ﷺ حتى أخذه فجعل احدى يديه فى ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه ثم اعتنقه وقبله ثم قال: حسين منى وأنا منه أحب الله من أحبه. الحسن والحسين سبطان من الأسباط.

أرأيت رسول الله ﷺ فى جلاله العظيم كيف يعطى الأولاد حقهم وليس أولاده فقط بل كل الأولاد.

أخرج أحمد عن عبد الله بن الحارث رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثير من العباس رضى الله عنهم ثم يقول: من سبق فله كذا وكذا قال: فيستبقون اليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزم.

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته وإنه جاء من سفر فسبق بى اليه فحملنى بين يديه ثم جيء بأحد ابنى فاطمة الحسن ـ أو الحسين ـ رضى الله عنهما فأردفه خلفه فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة.

وأخرج ابن عساكر أيضا عن عبد الله بن جعفر قال: مر بى رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الصبيان فحملنى أنا وغلام من العباس رضى الله عنه على الدابة فكنا ثلاثة.

وأخرج ابن عساكر أيضا عنه قال: «لو رأيتنى وقثما وعبيد الله ابنى عباس رضى الله عنه ونحن صبيان نلعب إذ مر رسول الله ﷺ على دابة فقال: ارفعوا هذا الى فجعلنى أمامه وقال: ارفعوا هذا الى فجعله وراءه وكان عبيد الله أحب الى عباس من قثم فما استحيا من عمه أن حمل قثما وتركه قال: ثم مسح على رأسى ثلاثا كلما مسح قال: اللهم اخلف جعفرا فى ولده».

ولا تحسب أن هذا الاكرام للصبيان فقط بل للبنات والصبيان:

أخرج البخارى عن أبى قتادة قال: خرج علينا النبى ﷺ وأمامه بنت أبى العاص رضى الله عنها (أى بنت بنته) على عاتقه فصلى فاذا ركع وضع واذا رفع رفعها.

وأخرج الطبرانى عن السائب بن يزيد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قبل حسنا رضى الله عنه فقال له الأقرع بن حابس: لقد ولد لى عشر ما قبلت واحدا منهم، فقال النبى ﷺ: لا يرحم الله من لا يرحم الناس.

وأخرج أبو يعلى عن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسجد فيجيء الحسن والحسين فيركب ظهره فيطيل السجود فيقال: يا نبى الله أطلت السجود فيقول: «ارتحلنى ابنى فكرهت أن أعجله».

* * *

والشعب الذى كان يئد البنات ويرى أن موت البنات من المكرمات، ولا يرى أحدهم البنت شيئا، ويستقبل ولادتها هذا الاستقبال السيء الذى وصفه القرآن: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِن**

سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

[النحل : ٥٨-٥٩]

هذا الشعب هو الذى كان منه رسول الله ﷺ وكان يعامل بناته بما يلى : فهل تراها بعدما تقرؤها أخلاقا وليدة بيئتها، أو أنها النبوة والتربية الالهية لصاحبها ، وحاشا أن تكون إلا الثانية .

أخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما رأيت أحدا من الناس أشبه بالنبى ﷺ كلاما ولا حديثا ولا جلسة من فاطمة رضى الله عنها قالت : وكان النبى ﷺ إذا رآها قد أقبلت رحب بها ثم قام إليها فقبلها ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها فى مكانه وكانت إذا آتاها النبى ﷺ رحبت به ثم قامت إليه فقبلته . وإنها دخلت على النبى ﷺ فى مرضه الذى قبض فيه فرحب بها وقبلها وأسر اليها فبكت ثم أسر اليها فضحكت، ولما سألتها عائشة عما أسر لها رفضت أن تجيبها حتى إذا قبض ﷺ قالت فاطمة : « أسر الى فقال : إنى ميت فبكيت ثم أسر الى فقال : إنك أول أهلى بى لحوقا فسررت بذلك وأعجبنى » .

وماتت فاطمة بعد ستة أشهر من وفاة رسول الله ﷺ .

وأخرج الترمذى عن جميع بن عمير التيمى قال : « دخلت مع عمتى على عائشة رضى الله عنها فسئلت أى نساء كان أحب الى رسول الله ﷺ ؟ قالت : فاطمة . فقيل من الرجال؟ قالت : زوجها إن كان ما علمت صواما قواماً » .

وعن المسور بن مخرمة رضى الله عنه قال : « خطب على بنت أبى جهل وعنده فاطمة فسمعت بذلك فأتت النبى ﷺ فقالت : يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك وهذا على ناكح ابنة أبى جهل فقام النبى ﷺ فتشهد وقال : « أما بعد . . فإنى أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثنى وصدقنى وإن فاطمة بضعة منى يريبنى ما يريبها والله لا تجتمع بنت رسول الله - ﷺ - وبنت عدو الله أبدا » قال : فترك على الخطبة » .

وفى رواية أخرى قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : « إن بنى هاشم بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب فلا آذن ثم لا آذن

ثم لا آذان إلا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم فانما هى بضعة منى يريبنى ما يريبها ويؤذينى ما آذاها » أخرجه الخمسة إلا النسائى .

أرأيت برا أبلغ بالبنات من هذا البر وما ذكرناه نموذج وإلا فأى بنت من بناته الأربع كانت تلاقى من العطف والبر ما تلاقيه فاطمة رضى الله عنها إنها كمال الأبوة فى أكمل نبى .

* * *

ولكن الشئ الأدل فى هذا الفصل على أخلاق النبوة مع هذه المحبة أنه ما كان ليرضى لبنته أن تعيش الا كما يعيش أكثر الناس فقرا . ذلك طابع الحياة التى يريدها رسول الله ﷺ لنفسه ولأهله، حتى لا تشغلهم الدنيا عن الآخرة، وحتى تتمحص أنفسهم لله واليوم الآخر وتأمل هذه الأمثلة وتذكر أن أحب الخلق اليه بشهادة عائشة هى فاطمة :

أخرج البيهقى فى الدلائل عن على قال :

« خطبت فاطمة الى رسول الله ﷺ فقالت مولاة لى : هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ ؟ قلت : لا . قالت : قد خطبت فما يمنعك أن تأتى رسول الله فيزوجك فقلت : وعندى شئ أتزوج به؟ فقالت : إنك إن جئت رسول الله زوجك قال : فوالله ما زالت ترجينى حتى دخلت على رسول الله ﷺ فلما أن قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة فقال رسول الله ﷺ : ما جاء بك؟ ألك حاجة؟ فسكت فقال : لعلك جئت تخطب فاطمة .

فقلت : نعم .

فقال : وهل عندك من شئ تستحلها به .

فقلت : لا والله يا رسول الله .

فقال : ما فعلت درع سلحتكها؟ فوالذى نفس على بيده إنها لحطمية ما قيمتها أربعة دراهم، فقلت : عندى فقال : قد زوجتكها فابعث اليها بها فاستحلها بها فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ » .

وأخرج النسائى عن ثوبان:

« . . فانتزعت فاطمة سلسلة فى عنقها من ذهب فقالت: هذه أهداها إلى أبو حسن فدخل ﷺ والسلسلة فى يدها فقال: يا فاطمة . . أيسرك أن يقول الناس: ابنة رسول الله ﷺ فى يدها سلسلة من نار ثم خرج فلم يقعد فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبدا فأعتقته فحدث رسول الله بذلك فقال: الحمد لله الذى أنجى فاطمة من النار ».

وأخرج البخارى ومسلم: « قال على لابن أعبد: ألا أحدثك عنى وعن فاطمة؟ قلت: بلى قال: إنها جرت بالرحى حتى أثرت فى يدها واستقت بالقربة حتى أثرت فى نحرها وكنست البيت حتى أغبرت ثيابها (وأوقدت القدر حتى دكنت ثيابها) فأتى النبى ﷺ خدم فقلت: لو أتيت أباك فسألته خادما فأتته فوجددت عنده حداثا فرجعت فأتاها من الغد فقال: ما كان حاجتك؟ وسكتت فقلت: أنا أحدثك يا رسول الله جرت بالرحى حتى أثرت فى يدها وحملت بالقربة حتى أثرت فى نحرها فلما أن جاء الخدم امرتها أن تأتيك فتستخدمك خادما يقيها حر ما هى فيه فقال: اتقى الله يا فاطمة وأدى فريضة ربك واعملى عمل أهلك واذا أخذت مضجعك فسبحى ثلاثا وثلاثين واحمدى ثلاثا وثلاثين وكبرى أربعا وثلاثين فتلك مائة فهى خير لك من خادم فقالت: رضيت عن الله وعن رسوله . . ولم يخدمها ».

* * *

إن كمال محمد ﷺ كزوج وكماله كأب، كماله فى عدله وفى رحمته وفى لطفه وفى أنسه، وفى رعايته وفى حسن سياسته وفى استقامته، وفى حمل أزواجه وأولاده على طريقه. كل هذا شاهد صدق ودليل حق على أنه المثل الأعلى للانسان فى كل جانب من جوانب حياته، وأنه القدوة العليا لكل إنسان فى أى جزء من أجزاء تصرفاته.

* * *

وإلى الفقرة الثالثة:

٣- المعلم والمربى الأول

لقد حدد رسول الله ﷺ مهمته الأساسية بقوله: « إنما بعثت معلما » والقرآن

الكريم ذكر هذه المهمة الأساسية لرسول الله ﷺ بصراحة فقال: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾ [الجمعة: ٢] فقد أحصت هذه الآية من مهمات الرسول: التعليم والتربية. تعليم الكتاب والحكمة وتربية الأنفس عليهما، وكان الجانب الأعظم من حياة رسول الله ﷺ مستغرقا بهذا الجانب إذ أنه هو الجانب الذى ينبع عنه كل خير لا يستقيم أى جانب من جوانب الحياة سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو عسكريا أو أخلاقيا إلا به، ولا يؤتى الإنسان ولا تؤتى أمة ولا تؤتى الإنسانية الا من التفريط فى العلم الصحيح والانحراف عنه. إما إلى الجهل أو إلى ما يضر علمه ولا ينفع.

فالأمة بلا علم يوضح لها جوانب سلوكها، وبلا تربية يعرف كل فرد من أفرادها واجبه. تصبح أمة فوضوية تصرفاتها غير متوقعة وغير منضبطة. ولكل فرد من أفرادها سلوك يخالف سلوك الآخر وعادات وتصورات تختلف فلا تكاد أمة تفلح بهذا ولا فرد.

والظاهرة التى نجدها فى تاريخ محمد ﷺ أن السيد الرسول بدأ تشكيل أمة جديدة لها كل مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية والدستورية واللسانية. بحيث ينبت الفرد فيها عن صلته بأى عالم غير عالم هذه الأمة، من حيث العقيدة والسلوك فصهر أفراد هذه الأمة انصهارا تاما. ثم أطلق هذه الأمة فى اتجاه وحيد حدد فيه لكل فرد مهمته، ورباه على أدائها، وحدد للجميع المهمة الكبرى، ورسم لهم الطريق، موضحا لهم كل شئ فى كل جانب، وقادهم فى هذا الطريق فترة ثم تركهم ماضيا الى ربه، فانطلقوا بعده لا غيروا ولا بدلوا فكان ما كان ولا زال. مما نشاهده من آثار المسلم العظيم الذى كلما تعثر أخذت بيده تعاليم محمد وتربيته فأنقذته وقذفت به الى الأمام.

* * *

وبعد فإننا نقول: إن كمال المربى يظهر:

١- بمقدار ما يستطيع أن ينقل نفس الانسان وعقله من حالة دنيا الى حالة أعلى وكلما رقى بالانسان أكثر كلما دل ذلك على كماله أكثر.

٢- فى سعة دائرة البشر الذين استطاع أن ينقلهم الى كمالهم الانسانى، فكلما كانت الدائرة أوسع كلما كان أدل على الكمال.

٣- ثم فى صلاحية هذه التعاليم والتربية، وحاجة الناس جميعا لها، واستمرار إيتاء هذه التعاليم آثارها على مدى العصور. بحيث لا يستغنى البشر عنها، وبشهادة العدو والصديق المؤمن والكافر ما بلغ أحد فى تاريخ البشرية ما بلغه محمد ﷺ فى هذه الجوانب كلها حتى قال موير: «لم يكن الاصلاح أعسر ولا أبعد منالا منه وقت ظهور محمد ولا نعلم نجاحا وإصلاحا تم كالذى تركه عند وفاته». وقالت دائرة المعارف البريطانية: «لقد صادف محمد النجاح الذى لم ينل مثله نبى ولا مصلح دينى فى زمن من الأزمنة» ويقول بوزورث اسمث: «إن محمدا بلا نزاع أعظم المصلحين على الإطلاق».

ويقول هيل:

«إن جميع الدعوات الدينية قد تركت أثرا فى تاريخ البشر، وكل رجال الدعوة والأنبياء قد أثروا تأثيرا عميقا فى حضارة عصرهم وأقوامهم ولكنا لا نعرف فى تاريخ البشر أن دينا انتشر بهذه السرعة، وغير العالم بأثره المباشر، كما فعل الاسلام ولا نعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيدا مالكا لزمانه ولقومه كما كان محمد. لقد أخرج أمة الى الوجود ومكن لعبادة الله فى الأرض وفتحها لرسالة الطهر والفضيلة، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين، وأصل النظام والتناسق والطاعة والعزة فى أقوام لا تعرف غير الفوضى».

هذه شهادة الدارسين ممن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وقد أعماهم حقد صليبى موروث فشهدوا ولم يؤمنوا. وما أغنانا عن شهادتهم وشهادة الواقع أمامنا على كل جانب من هذه الجوانب المذكورة آنفا.. وهاك آثار تربيته:

أصحاب الرسول ﷺ الذين شرفوا برؤيته والايمان به وعشرات الألوف. من هذه الألوف من رافقه كل فترة البعثة، ومنهم من رآه مرة فسمع منه حديثا. وإذا أنت أجريت مقارنة بين حياة هؤلاء قبل تلمذتهم على محمد ﷺ وبين حياتهم بعده، بين واقعهم قبل ذلك وبين واقعهم بعده، بين أعمالهم وتصرفاتهم قبل وبين أعمالهم

وتصرفاتهم بعد. بين أهدافهم الأولى وأهدافهم الثانية. بين تصوراتهم عن الله والكون والانسان أولا وبين تصوراتهم ثانيا، إنك تخرج نتيجة المقارنة وأنت ترى النقلة البعيدة الكبيرة الواسعة التى نقل إليها رسول الله ﷺ هؤلاء من طور الى طور، من حضيض الى سمو لا يدانيه سمو آخر.

خذ مثلا شخصية عمر بن الخطاب فى الجاهلية تجده رجلا قبلى الفكر والطبيعة والعاطفة والتصور، محدود الإدراك، همه فى الحياة: السكر واللهو والبطالة مع أصدقائه. ولولا رسول الله ﷺ لعاش عمر ومات عمر وما أحس به أحد ولكنه ما أن يشرب كأس الاسلام من يد رسول الله حتى يصبح عمر المشرع العبقرى الفذ، ورجل الدولة العظيم الكبير، ورمز العدل الذى لا يكون الا معه مع الحزم والرحمة، سعة الأفق وصدق الإدراك وحسن الفراسة..

عمر الذى أصبح ملء الدنيا سمعها وبصرها. ما كان ليكون شيئا لولا أنه تربى فى حجر رسول الله فأخذ منه العلم والحكمة والتربية.

* * *

عبد الله بن مسعود راعى الابل المحتقر المهان فى قريش، الذى ما كان ليعرفه الا سيده ومن يستخدمه، هذا الرجل النحيل القصير الحمش الساقين. ماذا يصبح بعد أن ربته يد النبوة، يصبح الرجل الذى يعتبر مؤسس أكبر مدرسة فى الفقه الاسلامى والتى ينتسب إليها أبو حنيفة النعمان، يصبح الرجل الذى يقول فيه عمر لأهل الكوفة: لقد آثرتكم بعبد الله على نفسى.

* * *

إنك عندما تدرس شخصية الإنسان قبل اتصالها برسول الله وبعد اتصالها تجد أن كل شئ فيها قد تغير وتجد كل طاقاتها وملكاتها قد انطلقت فى الطريق الصحيح، الطاقات الجسمية. والطاقات العقلية. والطاقات النفسية. والطاقات الروحية. والطاقات الوجدانية، والمعنوية والاخلاقية. هذه الطاقات كلها انطلقت فى اطارها الصحيح وطريقها المستقيم. بحيث لا يستطيع إنسان أن يقول إن طاقة ما معطلة عند أصحابه أو أنها تعمل عملا غير صالح.

طاقة العمل: «إن الله يحب العبد المحترف».

طاقة المشاركة فى العمل العام:

«إذا تبايعتم بالعينة ورضيتم بالزرع وتبعتم أذناب البقر وتركتم جهادكم سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى تعودوا الى دينكم».

الطاقة الجنسية: «تزوجوا الولود الودود».

الطاقة الجسمية: «المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف...».

ملكة حسن الهندام: «فأصلحوا رحالكم وأحسنوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة فى أعين الناس فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش».

طاقة الفكر والعلم: «طلب العلم فريضة» «تفكر ساعة خير من عبادة...».

إنك لا تجد طاقة من طاقات الإنسان إلا وقد أطلقها رسول الله ﷺ فى طريقها الصحيح، فأصبحت ترى من أصحابه العجب، فى تكامل شخصياتهم عبادا زهادا شجعانا محاربين عادلين رحماء إداريين حكماء مربين. كل واحد منهم أمة، وما أسهل عليه أن يقود أمة، ولا أدل على ذلك أنه ندر واحد منهم لم يصبح أميرا بعد ذلك ولم يفشل واحد منهم فى ما ولى من قيادات.

* * *

وإذا أردت أن ترى مقدار ما رفع رسول الله النفس البشرية فاقرأ هذه الأمثلة البسيطة ذات الدلالة الكبيرة:

أخرج النسائى عن عائشة رضى الله عنها أن فتاة قالت -- يعنى للنبى ﷺ -- : «ان أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته وأنا كارهة فأرسل النبى ﷺ الى أبيها فجاء فجعل الأمر اليها فقالت: يا رسول الله أنى قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شئ».

أرأيت كيف ارتفعت نفسية المرأة حتى أصبحت تعرف حقها، وتريد أن تعرف الأخريات عليه. وأصبحت تستطيع أن تشكو إذا هضم حقها، وتجد من يسمع لها ويعطيها إياه. متى كان ذلك لولا تربية الرسول ﷺ لهذه الأمة؟

وأخرج الخمسة إلا مسلما قصة الحب العجيبة تلك التى كانت بين العبد معيث والأمة بريرة التى أصبحت بعد ذلك حرة وانفصم ما بينهما من نكاح وكانت لا تحبه وكان مولعا بها يقول ابن عباس:

«إن زوج بريرة كان عبدا يقال له « مغيث » كأنى أنظر إليه خلفها يطوف ودموعه تسيل على لحيته فقال رسول الله ﷺ للعباس: ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثا؟ فقال لها رسول الله: لو راجعتيه؟ فقالت: يا رسول الله تأمرنى؟ قال: لا إنما أشفع قالت: لا حاجة لى فيه».

أهناك أبلغ فى التربية من هذا الذى وصلت إليه هذه الأمة حتى نساؤها الإماء. أن أصبح كل فرد فيها يعرف حقه وواجبه ويجادل فيه ويقف عنده.

أخرج الروياني وابن جرير وابن عساكر عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه قال:

كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟ فرددها ثلاث مرات. فقدمنا فبايعنا رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله.. قد بايعناك فعلى أى شئ نبايعك؟

فقال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وأسر كلمة خفية أن لا تسألوا الناس شيئا. قال: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطه فما يقول لأحد يناوله إياه.

وأخرج الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ من يبايع؟ فقال ثوبان رضى الله عنه مولى رسول الله ﷺ: بايعنا رسول الله! قال: على أن لا تسأل أحدا شيئا.

فقال ثوبان: فما له يا رسول الله؟

قال: الجنة.

فبايعه ثوبان.

قال أبو أمامة: فلقد رأيته بمكة فى أجمع ما يكون من الناس يسقط سوطه وهو

راكب فربما وقع على عاتق رجل فيأخذه الرجل فيناوله فما يأخذه حتى يكون هو ينزل فيأخذه.

وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال: أعطى النبى ﷺ حكيم بن حزام رضى الله عنه يوم حنين عطاء فاستقله فزاده فقال: يا رسول الله.. أى عطيتك خير؟ قال: الأولى. فقال النبى ﷺ: يا حكيم بن حزام.. إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس وحسن أكلة بورك له فيه، ومن أخذه باستشراف نفس وسوء أكلة لم يبارك له فيه، وكان كالذى يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى، قال: ومنك يا رسول الله؟ قال: ومنى! قال: فوالذى بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا أبدا.

قال: فلم يقبل ديوانا ولا عطاء حتى مات.

قال: وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: اللهم إنى أشهدك على حكيم بن حزام أنى أدعوه لحقه من هذا المال وهى يأبى، فقال: إنى والله ما أرزأك ولا غيرك شيئا. كذا فى الكنز جـ ٣ ص٣٢٢ .

أرأيت هذه النقلة العظيمة من حالة إلى حالة أخرى: عزة نفس لا مثيل لها وماذا فى طياتها من أبلغ ما تصل إليه التربية الاستقلالية التى لا يكون معها معنى من معانى الاتكال على الغير.

* * *

أخرج مالك عن عطاء بن يسار قال: أتى رجل النبى ﷺ ثائر الرأس واللحية فأشار اليه ﷺ كأنه يأمره باصلاح شعره ففعل ثم رجع. فقال ﷺ: «أليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كانه شيطان».

وأخرج مالك والنسائى عن أبى قتادة قال:

قلت: يا رسول الله.. إن لى جمة أفأرجلها؟

قال: نعم وأكرمها.

فكان أبو قتادة ربما دهنها فى اليوم مرتين من أجل قوله ﷺ: نعم وأكرمها.

أرأيت هذه التربية التى لا تدع جانبا من الجوانب إلا وتستوعبه دق أو كبر مما له علاقة بظاهر الانسان وباطنه.

* * *

قال أبو داوود:

« وغير رسول الله ﷺ اسم العاصى وعزيز وعتلة وشيطان والحكم وغراب وحباب وشهاب فسماه: هشاما وسمى حربا سلما وسمى المضطجع المنبعث وأرضا تسمى عفرة سماها خضرة وشعب الضلالة سماها شعب الهدى وبنى الزنية سماهم بنى الرشدة وسمى بنى مغوية بنى رشد ».

أرأيت هذه اللفتات الجمالية التى يربى كل شئ فى الأمة بها على نسق منسجم مع الدعوة والرسالة وهذه التربية التى وصلت إلى الأسماء.

* * *

وروى الطبرانى فى الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة، عن رسول الله ﷺ قال: « ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟

وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة ».

ثم نزل فقال قوم:

من ترونه عنى بهؤلاء؟ قال: الأشعريين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب. فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله.. ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر فما بالنا؟

فقال: ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا، فقالوا: يا رسول الله.. أنعظن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم: أنعظن غيرنا؟

فقال ذلك أيضا. فقالوا: أمهلنا سنة فأمهلهم سنة يفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

أرأيت أبلغ من هذه التربية التى تفترض على المتعلم أن يعلم وعلى الجاهل أن يتعلم حتى تترقى الأمة كلها؟ وهل رأيت نصا قبل هذا النص فى العالم يفرض التعليم ويجعله الزاميا اجباريا؟ ولعلك ستدهش فى الرسالة الثالثة عندما سترى مزيدا عن النظام التعليمى فى الاسلام. عن كماله واستيعابه لكل حاجات الانسان الروحية والمادية.

* * *

وأخرج الشيخان عن أنس قال: بينا نحن فى المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه.. مه.. فقال رسول الله ﷺ: لا تزرموه (أى لا تقطعوا عليه بوله) دعوه فتركوه حتى بال ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له:

«أن هذه المساجد لا تصلح لشئ من هذا البول والقذر إنما هى لذكر الله تعالى والصلاة وقراءة القرآن وأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من الماء فشنه عليه (أى صبه)».

ضربنا هذا المثال لنعرف مقدار الوعى الحضارى عند العرب، إذ ما من إنسان فى العالم يبول فى معبده، ولكن العربى فعلها وكان موقف الرسول ﷺ منها موقف المربى الذى مهمته أن يجبر النقص إلى الكمال، وكان من آثار ذلك ما عبر عنه أحد قواد الفرس: إذ رأى المسلمين يصلون صفا واحدا منتظما فقال:

أكل عمر كبدى إذ علم هؤلاء مكارم الأخلاق. وما كان عمر هو الذى علمهم مع فضله ولكن الذى علمهم وعلم عمر هو رسول الله ﷺ.

* * *

ولم تكن دائرة تربية الرسول ﷺ محدودة بل شملت كل الجزيرة العربية. بترتيب وسائل هذه التربية، فكان لا يكتفى من القبيلة بإسلامها حتى يأتيه وفدها، وكان يبقى الوفد عنده فى المدينة أياما تمتد كثيرا أحيانا. وخلال هذه الإقامة كان يصوغهم صياغة جديدة. سواء بتوجيهاته أو بالاقتداء به. أو بأمر أصحابه أن يعلموهم. حتى إذا ما أذن لهم بالرحيل أمر عليهم رجلا منهم وأمرهم أن يقوموا بعملية التربية والتعليم نيابة عنه، وكان زيادة على ذلك يرسل أصحابه آحادا أو جماعات ممن فقهوا وربوا تربية عالية إلى كل مكان، ليقوموا بدور المربى. فكان من آثار ذلك أنه خلال سنوات معدودة لا تتجاوز عشرا أصبحت الجزيرة العربية – وما أوسعها حتى لتكاد تكون قارة. واعية لدين الله، مرباة مهذبة الى حد كبير، تغيرت مفاهيمها الى أعلى ما يبلغ إنسان من تصورات، بعد أن كانت فى أدنى دركات الانحطاط الفكرى حتى ليعبد أحدهم تمرات صباحا ويأكلهن مساء.

* * *

وكان القرآن حفظا وفهما وتطبيقا وسلوكا هو أداة هذه التربية العظيمة. وسترى فى بحث المعجزة القرآنية كيف أن هذا القرآن أحاط بكل شئ. وفتح آفاق النفوس والعقول على كل مشهد. فلم يعد به خافيا على أحد ما ينبغى أن يأخذ وأن يدع، ولم يبق معه سؤال بلا جواب، ولم تبق حجة لمنحرف إلا وقد دحضت فيه، ولا شبهة على الاسلام وأهله إلا كشفت به، ولا جانب من جوانب الحياة إلا وقد عرف الحق فيه منه.

والرسول ﷺ كان همه أن يستوعب الناس هذا القرآن حفظا وفهما وتطبيقا. إذ على قدر ما يستوعبه أفراد الأمة على قدر ما ترتفع أنفسها، ويسمو تفكيرها، وتتفتح آفاق الحياة أمامها، ولذلك جعل مقياس الخيرية القرآن فقال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

وكان يختار للإمرة أكثر الناس أخذا للقرآن حفظا وفهما وتطبيقا. وربى أصحابه على ذلك، فكانت سياسة الخلفاء الراشدين بعده منصبة على أن يبلغ الناس بالقرآن غاية الجد فيه، والحرص عليه، حتى قال عمر لجيش من جيوشه وقد أرسله: إنكم

تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله.. امضوا وأنا شريككم.

ولم تمض فترة إلا وأصبح القرآن على كل لسان، وأصبح كثير من الناس وقد حفظوه كله، فارتقت بذلك مدارك المسلمين كلها ارتقاء لا مثيل له سواء فى ذلك جوانب العقيدة أو العبادة أو السياسة أو الإدارة أو الأخلاق أو التشريع أو الحرب أو السلم أو العلم أو العمل. فترة بسيطة من الزمان وإذا بالأمة الأمية لا يغلبها غالب فكرا أو حربا أو حضارة وكل ذلك أثر من آثار رسول الله ﷺ ولا يمكن أن ينسب لسواه، وحدث بذلك مرة واحدة فى تاريخ البشر أن الانسانية رأت أمة: الحق عندها يحكم القوة، والزهد عندها ترافقه الشجاعة، والعبادة عندها ترافقها الحكمة، أمة ما رأت مثلها الدنيا لذلك فانها ما كادت تتعرف عليها حتى دخلت فى دينها.

أو ليس عجيبا أن البلاد التى فتحها هؤلاء الذين رباهم رسول الله ﷺ قد دخل أهلها فى الاسلام طوعا لا كرها وأخلصوا للدين الجديد حتى فدوه بالأرواح والأموال والأولاد مع أن الاسلام أعطاهم حرية البقاء على دينهم الأول كل ذلك إنما كان كأثر من الإعجاب برجال لهم دين ليس مثله بين الأديان ولا يوجد مثلهم بين الرجال.

* * *

وسنروى الآن حادثات ثلاثا يعرف بها مقدار النضج الفكرى الذى وصل اليه أصحاب رسول الله ﷺ بحيث جابهوا به كل الثقافات الأخرى غالبين، وهو جانب من جوانب التربية المحمدية لهذه الأمة: أول هذه الحوادث مقطع من مناقشة حاطب بن أبى بلتعة – رسول رسول الله إلى المقوقس – مع المقوقس، وثانيها خطاب العلاء الحضرمى للمنذر بن ساوى أمير البحرين التى كانت تشمل فى الماضى الكويت الحالية وقطر والبحرين والأحساء بأسمائها الجديدة، وثالثها مناقشة المغيرة بن شعبة لكسرى ورستم. وهذه هى مرتبة:

١– قال المقوقس لحاطب: «ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟ قال حاطب: ما منع عيسى وقد أخذه قومه ليقتلوه أن يدعو الله عليهم فيهلكهم؟ فقال المقوقس: أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم».

٢- وقال العلاء الحضرمى لأمير البحرين:

« يا منذر إنك عظيم العقل فى الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة. إن هذه المجوسية شر دين ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتاب ينكحون ما يستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتنزه عن أكله، ويعبدون فى الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة.. ولست بعديم عقل ولا رأى فانظر:

هل ينبغى لمن لا يكذب فى الدنيا ألا تصدقه، ولمن لا يخون ألا تأمنه، ولمن لا يخلف ألا تثق به، هذا هو النبى الأمى الذى لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه. إذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل، وفكر أهل النظر».

وقد أسلم المنذر.

٣- ولما أرسل سعد بن أبى وقاص الى كسرى وفدا يدعونه الى الاسلام كان من قصتهم:

أنهم استأذنوا على كسرى فأذن لهم وخرج أهل البلد ينظرون الى أشكالهم وأرديتهم على عواتقهم، وسياطهم بأيديهم، والنعال فى أرجلهم وخيولهم الضعيفة وخبطها الأرض بأرجلها، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعددها[1]، ولما استأذنوا على الملك يزجرد أذن لهم وأجلسهم بين يديه، وكان متكبرا قليل الأدب - ثم جعل يسألهم عن ملابسهم هذه ما اسمها عن الأردية والنعال والسياط.

ثم كلما قالوا له شيئا من ذلك تفاءل فرد الله فأله على رأسه. ثم قال لهم: ما الذى أقدمكم هذه البلاد؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا؟ فقال له النعمان بن مقرن رضى الله عنه:

إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة.

---

(١) عددها وعددها: الأولى بفتح العين والثانية بضمها.

فلم يدع الى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده، ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص، فمكث ذلك ما شاء الله أن يمكث. ثم أمر أن ينهد إلى من خالفه من العرب ويبدأ بهم ففعل فدخلوا معه جميعا على وجهين مكره عليه فاغتبط، وطائع إياه فازداد، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين الاسلام. حسن الحسن وقبح القبيح كله. فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة (المقاتلة) وإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم. وإن أتيتمونا بالجزى قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم.

قال: فتكلم يزدجرد فقال:

إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم. قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى ليكفوناكم لا تغزونكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فان كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فأسكت القوم.

فقام المغيرة بن شعبة رضى الله عنه فقال:

أيها الملك، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشراف الاشراف، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف، وليس كل ما أرسلوا له جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك. فجاوبنى، أكون أنا الذى أبلغك ويشهدون على ذلك، انك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع. كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا، وأن يبغى بعضنا على بعض، وان كان أحادنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تاكل من طعامه، وكانت حالنا قبل اليوم

على ما ذكرت لك. فبعث الله رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته خير بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، وهو نفسه كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا، فدعانا الى أمر فلم يجبه أحد، أول ترب كان له الخليفة من بعده، فقال وقلنا، وصدق وكذبنا، وزاد ونقصنا فلم يقل شيئا الا كان فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله.

فقال لنا: إن ربكم يقول: أنا الله وحدى لا شريك لى كنت إذا لم يكن شئ، وكل شئ هالك إلا وجهى وأنا خلقت كل شئ وإلىّ بصير كل شئ، وإن رحمتى أدركتكم، فبعثت اليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى أنجيكم بها ـ بعد الموت ـ من عذابى، ولأحلكم دارى دار السلام. فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق. وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه..

فأنا الحكم بينكم، فمن قتل منكم أدخلته جنتى ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه، فاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجو بنفسك. فقال: يزدجرد: أتستقبلنى بمثل هذا؟ فقال: ما استقبلت إلا من كلمنى. ولو كلمنى غيرك لم استقبلك به.

* * *

عرضنا هنا جانبا من جوانب تربية الرسول ﷺ لهذه الأمة، وسيمر معك جانب آخر فى باب الثمرات، وسيأتيك فى البحث الثالث (عن الاسلام) الجوانب التفصيلية لمنهاج التربية والتعليم الذى شرعه رسول الله ﷺ للانسانية، وسترى أنه ما ترك شاردة ولا واردة مما يحتاجه البشر فى أمر دين أو دنيا الا وقد أحاط به ذلك المنهاج العظيم، الذى جعل الأمة الاسلامية عندما كانت واعية له أرفع أمة فى ميزان الحضارة، ورفعت به أمم الغرب فكان من آثاره ما هم عليه الآن، وتخلت عنه الأم الاسلامية فوصلت الى ما هى عليه الآن.

ونظن أننا بما ذكرنا حتى الآن كفاية للاقناع بأن العالم ما شهد ولن يشهد مربيا

كمحمد ﷺ . فعل ما فعل بامكانياته المحدودة ماديا، وبشعب أمى عمليا، وخذ التاريخ كله وسله هل استطاع مرب أو زعيم أن ينقل أمة بهذه الفترة المحدودة، والامكانيات غير المتوفرة من الناحية النفسية والاخلاقية والفكرية والحضارية والعسكرية والسياسية، الى معشار ما نقل اليه رسول الله ﷺ أمته فى سنوات معدودات؟ اللهم لا .

* * *

ونريد أخيرا أن نقرر حقيقة هى : لئن شارك غير محمد ﷺ محمدا ﷺ فى بعض جوانب ربى عليها رسول الله ﷺ البشر. فان رسول الله ﷺ وحده هو الذى وضع النفس البشرية على الطريق الصحيح، أما غيره فلئن أصلح جانبا فعلى حساب جوانب ويبقى ما أصلحه من النفس البشرية ذرة من جبل. أما رسول الله ﷺ فقد أصلح النفس البشرية كلها حتى أعماق أعماقها وبهذا نقول :

إنه فى الأصل لا يوجد مرب غير محمد ﷺ . فقولنا إنه المربى الأول وقدوة المربين لا يعنى أننا أعطينا لغير من سلك طريقه صفة التربية حاشا، وإنما هو لتقريب الأمور كى تتضح الحقائق وهذا بيان ما قلناه :

إن النفس البشرية كثيرة التعقيد كثيرة الشهوات فهى تحب المال والتملك وتود الحصول عليه من أقرب الطرق، وتحب المتعة من تمتعها بالجمال الى الخمر الى ما يلذ . وقد تصل الأمور ببعض الناس أنهم يتمتعون بمرأى الدماء. وما يمتع هذه النفس تود الوصول إليه مهما كان نوعه، وبأى طريق، والنفس تحب السيطرة وتحب التحكم بالآخرين، والترأس عليهم والارتفاع عن غيرها، وليس عند النفس مانع من استغلال الآخرين وبخسهم حقهم .

والنفس لا تألف النظام بل الفوضى، والانفلات من كل تكليف ومن كل قيد .

والنفس حريصة على الحياة، وتكره الموت حتى ولو كان الموت شيئا ضروريا، ككونه لحرب عادلة، والنفس بشكل عام تود أن يؤدى لها حقها وتود أن تتهرب من واجبها .

وهذا الذى أجملناه بعض ما فى النفس .

وأن تعطى أنفس البشر كلها شهواتها فذلك مستحيل. إذ كل إنسان يحب الرئاسة. فهل يمكن أن يكون الناس كلهم رؤساء؟ وأجمل امرأة فى العالم يتمناها زوجة كل إنسان فهل يمكن أن تكون زوجة لكل البشر؟

لذلك فالبشر كلهم مجمعون على أنه لابد من وضع حدود وقيود للنفس البشرية. تتمثل هذه الحدود والقيود بالآداب والأخلاق والعادات والقوانين، وتربية الناس على ذلك.

والذى نراه أن بعض المربين ينجحون فى جانب، ويفشلون فى جوانب، فنجد زعيما نجح فى تربية قومه على التضحية، ونجد آخر نجح فى تربية قومه على النظام، ونجد آخر نجح فى تربية قومه على أداء الواجب، ونجد آخر نجح فى تربية قومه على العمل، ولكنك فى المقابل تجد أنه نسى بقية جوانب النفس البشرية، فلم يفعل لها شيئا. هذه ناحية، وناحية أخرى فان هؤلاء نجحوا فى هذا الجزء، ولكن قد يكون هذا الشئ الذى نجحوا فيه غير موضوع فى محله، فالذى نجح فى تعويد شعبه على الطاعة قد تكون طاعته فيما لا ينبغى، والذى نجح فى حمل قومه على التضحية قد يجعلهم يضحون فيما لا يستحق التضحية، ولكن الظاهرة التى نراها فى تربية رسول الله ﷺ أنه ربى كل جوانب النفس البشرية وهذبها وجعلها على الصراط الصحيح. فما ترى جانبا مضيعا، وما ترى تهذيبا فى غير محله، ولا ترى بعد ذلك للنفس المسلمة تصرفا كان ينبغى ألا يكون.

رباها على التضحية فى محلها، وعلى الفداء فى محله، وعلى النظام حيث يحسن النظام، وعلى الطاعة حيث تجمل الطاعة، وعلى تحقيق المتعة حيث تكرم المتعة، وعلى التملك حيث يعدل التملك،وعلى العبادة لله، وحسن المعاملة للناس، كل ذلك وأمثاله وأمثاله دون أن يطغى جانب على جانب، أو ينسى جانب على حساب جانب، أو تستعمل النفس فيما يقبح أن تكون فيه، أو تنتقد عليه. وفى المبحث الثالث «الإسلام» بيان هذا بما لا لبس فيه.

فمحمد وحده ﷺ هو مربى النفس البشرية، وغيره لا يجوز أن يعطى هذه الصفة إلا بالقدر الذى يتأسى فيه برسول الله ﷺ.

وإلى الفقرة الرابعة:

٤ - رجل الدولة الأول (سياسيا وعسكريا)

دمجنا العمل السياسى والعمل العسكرى فى هذه الفقرة على اعتبار أن العمل العسكرى أثر عن العمل السياسى ومرتبط به ارتباطا كاملا لا ينفصل عنه، وقد يكون ذروته فى بعض الحالات التى تكون فيها الحرب لابد منها، ثم إن الامكانيات السياسية فى إدارة الحروب لا تنفصل عن الامكانيات العسكرية فى الإدارة السياسية، والرسول عليه السلام، كان قائد المسلمين سياسيا وعسكريا، وهو الذى سار بهم من نصر إلى نصر. حتى جعل مفاتيح العالم فى أيديهم مرات عديدة ولا زال باستطاعة المسلمين أن يسرتجعوها إذا تتلمذوا مرة أخرى تلمذة كاملة على يديه.. عليه السلام.

على أنه وإن ارتبط العمل السياسى بالعمل العسكرى. فان لكل مجال كلام ينفرد فيه. لذلك فاننا سنقسم الكلام فى هذه الفقرة الى قسمين: الأول فى الكلام عن الرسول عليه السلام سياسيا. والثانى عسكريا، لنرى كيف أن الرسول عليه السلام فى كل كان فى القمة التى لا يرقى إليها أحد، وهو الأمى الذى لا يعرف قراءة ولا كتابة، مما يدل على أن المسألة هنا ربانية المبدأ والطريق والنهاية.

* * *

القسم الأول: الرسول عليه السلام

القيادة السياسية العليا

إن نجاح القيادة السياسية يتوقف على ما يلى:

١- على استيعاب هذه القيادة لدعوتها، وثقتها بها وبأحقيتها، وثقتها بانتصارها. وعدم تناقض سلوك هذه القيادة مع ما تدعو اليه، بحيث تكون مواقفها كلها منسجمة مع هذه الدعوة، وبحيث تكون هذه المواقف كلها لصالح الدعوة، حتى لا يكون بيد أعداء الدعوة سلاحا فعالا من هذه المواقف ضد الدعوة نفسها.

٢- وعلى قدرة القيادة على الاستمرار بالدعوة تبليغا وإقناعا.

٣- وعلى قدرة القيادة فى استيعاب المستجيبين للدعوة تربية وتنظيما وتسييرا.

٤- وعلى وجود الثقة الكاملة بين القيادة وأتباعها.

٥- وعلى قدرة القيادة أن تعرف إمكانية الأتباع، وأن تستطيع الاستفادة من كل إمكانياتهم العقلية والجسمية أثناء الحركة. بحيث يأخذ كل منهم محله الصحيح.

٦- وعلى قدرة القيادة أن تحل المشاكل الطارئة بأقل قدر ممكن من الجهد.

٧- وعلى أن تكون هذه القيادة بعيدة النظر مستوعبة لكل الواقع. فتضرب ضرباتها السياسية بشكل محكم.

٨- وعلى قدرة هذه القيادة أن تصل الى النصر والاستفادة منه، وتطبيق مبادئ دعوتها تطبيقا صحيحا.

٩- وعلى قدرة هذه القيادة أن تحكم أمر بناء دولتها إحكاما يجعلها قادرة على الصمود والنمو على المدى البعيد.

وما عرف التاريخ إنسانا كمل فى هذه الجوانب كلها إلى أعلى درجات الكمال غير محمد ﷺ. مع ملاحظة أن كمالاته هنا جانب من جوانب كمالاته المتعددة التى لا يحيط بها غير خالقها، وأن كمالاته ونجاحه واستقامة خطواته وانتصاراته وتوفيق

الله إياه كل ذلك دليل أنه رسول الله الذى رباه، فأحسن تربيته وأحاطه برعايته. ولنبدأ الآن باستعراض هذه الجوانب التسع فى سيرة رسول الله العملية لنرى برهان كل وكماله فيه مع ملاحظة أن خطتنا فى هذه الأبحاث الاختصار والإشارة لا التفصيل:

* * *

١ - استيعابه عليه السلام لدعوته نظريا وعمليا وثقته بها وبانتصارها

إذا كان هناك إنسان استوعب جوانب دعوته كل الاستيعاب، ووثق بها وبمصيرها كل الثقة، وعرف مضمونها كل المعرفة وعرف بداياتها ونهاياتها وأولها وآخرها ومقدماتها ونتائجها، ولم يتزحزح عن جزء منها. بل الخطوة الثانية تأتى مكملة للخطوة الأولى، وممهدة للخطوة التالية، فذلك هو محمد رسول الله ﷺ فالرسول عليه السلام كان واضحا تماما لديه أن منطلق دعوته هو أن الحاكم الحقيقى للبشر لا يجوز أن يكون غير الله. وأن خضوع البشر لغير سلطان الله وحاكميته شرك، وأن التغير الأساسى الذى ينبغى أن يتم فى العالم هو نقل البشر من خضوع بعضهم لحاكمية بعض، إلى خضوع الكل لله الواحد الأحد، وأن الأمة التى تحمل هذه القضية بكل متطلباتها، هى التى سيكون بيدها مفاتيح الحياة البشرية، ولها قياداتها ومن هذه البداية، وإنسجاما معها، يقوم كل شئ فى حياة البشرية ثانيا، وحياة الأمة التى تحمله أولا ولننظر وضوح هذه الجوانب عنده ﷺ فى بداية الأمر ونهايته:

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: «لما مشوا إلى أبى طالب وكلموه ــ وهم أشراف قومه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل ابن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب فى رجال من أشرافهم ــ فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت. وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا ولنكف عنه وليدعنا وديننا ولندعه ودينه. فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال: يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك قال: فقال رسول الله ﷺ :كلمة واحدة تعطونها تملكون بها

العرب وتدين لكم بها العجم. فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات، قال: تقولون لا اله الا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفقوا بأيديهم».

وروى ابن إسحاق عن الزهرى فى قصة عرض الرسول الله ﷺ دعوته على بنى عامر بن صعصعة ما يلى: ثم قال له (أى بحيرة بن فراس): أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال (أى رسول الله): الأمر لله يضعه حيث يشاء، فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا.. لا حاجة لنا بأمرك. فأبوا عليه.

قال عدى بن حاتم:

«بينما أنا عند رسول الله إذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقة.. ثم أتاه آخر فشكا اليه قطع السبيل فقال: يا عدى هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، فقال: إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً الا الله.. ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى ابن هرمز، قال عدى: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف الا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز..».

وقد طالب المشركون رسول الله ﷺ أكثر من مرة أن يطرد المستضعفين من المسلمين حتى يجلسوا إليه وفى كل مرة كان يتنزل قرآن ويكون موقف رسول الله ﷺ الرفض ومن هذه ما أخرجه أبو نعيم عن ابن مسعود قال: مر الملأ (أى السادة) من قريش على رسول الله وعنده صهيب وبلال وخباب وعمار رضى الله عنهم ونحوهم وناس من ضعفاء المسلمين فقالوا (أى الملأ مخاطبين رسول الله): أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعا لهؤلاء؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم اتبعناك قال: فأنزل الله عز وجل.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥١-٥٢].. وأخرجه أحمد والطبرانى.

من هذه الأمثلة ترى بشكل واضح استيعاب رسول الله ﷺ لدعوته وثقته بها وبانتصارها، وانسجام مواقفه معها، ووضوح طريقه أمامه، ومعرفته بنهايات ما يريد منها. فلم تضطرب بدايات مواقفه أبدا مع نهاياتها، بل كل خطوة تأتى تكون مكملة لما قبلها، وكل تشريع جديد يأتى متمما لما قبله، حتى كملت شريعة الله، وتم دينه وهذا كله ما كان ليتم لو لا أن محمدا رسول الله.

وهذا أول ما يلزم العمل السياسى العام. تجده كأكمل ما يكون عند رسول الله ﷺ.

ويكفيك لتعرف معنى هذا الذى قدمناه. أن تعلم أن الناس يعتبرون العمل السياسى الإسلامى عملا مثاليا لا يستطيعه أى إنسان، فإذا ما عرفنا بعد ذلك أن الرسول عليه السلام استطاع أن يقوم الناس بهذا الاسلام. فلا نجد موقفا من مواقفه تناقض مع نصوص ومبادئ دعوته، وعلمت أنه ما من زعيم سياسى، إلا ويضطر للتناقض، إما لاحقا مع سابق، أو دعوى مع عمل، أو داخليا مع خارجى، أدركت مدى الكمال فى القيادة المحمدية، وخاصة اذا عرفت أنه لم يستطع أن يرتفع من حكام الأمة الاسلامية الى القيادة بالاسلام الكامل بحق إلا أفراد منهم الخلفاء الراشدون الأربعة والثالث ثير عليه وقتل ظلما. والرابع خرج عليه وانتصر بعد ذلك خصمه السياسى. أما رسول الله ﷺ فقد ساس الناس بالاسلام ولم ينزل بالإسلام الى مستوى الناس بل رفع الناس إلى مستواه. على وتيرة واحدة، ونسق واحد، فى الفكر والعمل، من بداية الدعوة حتى انتقاله ﷺ إلى العالم الآخر.

* * *

٢- استطاعته عليه السلام الاستمرار بدعوته تبليغا وإقناعا:

إن هناك شيئين أساسيين فى العادة، يجب أن يتفطن لهما قادة الحركات السياسية الفكرية الجديدة:

(أ) الحرص على استمرار عملية التبليغ والإقناع.

(ب) البصر الحكيم فى الموقف الذى يتخذ من الخصم.

إن أى دعوة من الدعوات إذا لم تستطع تأمين عملية استمرار التبليغ والإقناع

تجمد، ثم تنحصر ثم تموت، وأى دعوة من الدعوات لا تتخذ الموقف المناسب من الخصم، تضرب ضربة ساحقة ثم تزول، ولنضرب على هذا مثالا:

إن الهنود عندما أرادوا تحرير بلادهم من الانجليز، اختاروا لنفسهم طريق اللاعنف فى العمل. ومعناه عندهم أن لا يجابه الانسان القوة الظالمة بالعنف بل يتحمل ظلمها بصبر حتى تتغير هى عواطفها، وترتدع عن غيها، وفائدة هذا الطريق أنه يكسب صاحبه عطف الناس وعطف الرأى العام خاصة عندما يكون على حق، وقد نجح الهنود أخيرا فى تحرير بلادهم ولم يكلفهم هذا الطريق ضحايا كثيرة. ولو أنهم سلكوا غير هذا الطريق لما استطاعوا وقتذلك أن يصمدوا أمام قوة بريطانيا فيكونون قد خسروا كثيرا وفشلوا أخيرا.

وأنت عندما تدرس هذين الجانبين فى العمل عند رسول الله ﷺ تجد أن رسول الله ﷺ قد نجح فيهما نجاحا منقطع النظير، فرغم تألب الجزيرة العربية كلها عليه كما رأينا فى الباب السابق، ورغم العداء العنيف الذى ووجه به، ورغم كل شئ فإن عملية التبليغ لم تنقطع لحظة من اللحظات، ولعل أهم نقطة تلمحها بعد التوحيد أثناء عرض الرسول ﷺ دعوته على القبائل، هى إلحاحه على قضية حماية الدعوة، واستمرارها وتأديتها، ولقد تجاوز الرسول ﷺ ثلاثة عشر عاما من المجابهة للمشركين، دون انقطاع عن العمل، مما يدل على مقدار نجاحه فى هذا الموضوع.

وأما بالنسبة للأمر الثانى فأنت تلاحظ حكمة مواقفه تجاه العدو فهو فى مكة: يصبر ويأمر أتباعه بالصبر، ولو فعل غير هذا لخسر أتباعه قتلا. ولشغل بذلك فى قضايا الثأر. ولما أمكنه أن يتابع عملة التبليغ، وكسب بهذه الخطة كثيرا من القلوب.

فإذا ما انتقل الى المدينة رأيت تجدد مواقفه على حسب الظروف الجديدة من معاهدة، الى سلام، الى حرب، الى ضربة هنا ووثبة هناك، ولكن هذا كله لم يؤثر بتاتا على عملية تبليغ الحق وإقناع الناس بها، على كل مستوى وبكل وسيلة ملائمة.

واذا أردت أن تقدر مقدار النجاح المحرز فى هذا الطريق فانظر هذه المقارنة: إن الحركة الشيوعية رغم وسائل القرن التاسع عشر فى الدعاية وتفرغ أتباعها فانها لم تستطع أن تحقق نصرا وتعمم إلا بعد سبعين عاما من أول بيان أصدره زعيماها.

ولكن الذى حدث بالنسبة للدعوة الاسلامية أن رسول الله ﷺ عممها خلال ثلاث وعشرين عاما التعميم الذى يرافقه الإقناع. ولهذا فإننا نقول مطمئنين: إنه لم توجد حركة سياسية تقوم على أساس عقيدى نجحت كما نجحت دعوة رسول الله ﷺ وبفترة قصيرة وهذا كله يدلنا على أن الأمر أكبر من أن يكون بدون توفيق إلهى لهذا الرسول الأعظم الفذ على مدى التاريخ بين الرجال.

* * *

٣- قدرته عليه السلام على استيعاب أتباعه تربية وتنظيما وتسييرا ورعاية

إن الدعوة العقيدية السياسية تصاب من قبل أتباعها بسبب قيادتها من نواح ثلاث:

١- ألا تقدر هذه الدعوة على أن تربى أتباعها تربية نموذجية، بحيث يعطى أتباعها صورة حسنة عنها، مما يؤدى الى نفور الناس منها كأثر عن نفورهم من اصحابها. فيكون بذلك التابع حجة على الدعوة بدلا من أن يكون حجة لها، وهذا يؤلب الرأى العام ضدها تأليبا خطيرا ويعطى الرأى العام حجة تلو حجة عليها. وعلى العكس من ذلك إذا ما ربى أفرادها تربية نموذجية حية فإن الناس يؤمنون بهم قبل إيمانهم بدعوتهم، ويحبونهم قبل أن يعرفوا ما يدينون به، وكم رجال ضربوا دعوتهم بسلوكهم مع أنهم يحملون دعوة عظيمة.

٢- أن يدخل الدعوة ناس ولا تستطيع هذه الدعوة أن تسخر طاقاتهم فى سبيلها. فأمثال هؤلاء يكونون فى وضع مشلول، فلا هم ضد الدعوة ولا هم يقدمون شيئا لها، وفى هذه الحالة تكون قيادة الدعوة وحدها متحملة كل مسئولياتها، والدعوة إذا كانت على امتداد دائم فإن هذه القيادة ستصبح فى وضع لا يسمح لها أن تقوم بكل واجباتها، وتكون المسألة هكذا. داعية واحد، ومدعوون كثيرون، أما فى الحالة الأخرى فإنك تجد العكس، وعندما تستطيع قيادة الدعوة أن تسخر طاقات الأتباع لصالح الدعوة، فإن المسئولية يتحملها مجموع الأفراد، فيكون كل فرد داعية نائبا مناب القائد، وكل فرد يؤدى دوره. وفى النهاية فمهما توسعت دائرة الدعوة تبقى القيادة على قوة فى تحملها.

٣- وعندما لا يحس الأتباع بالرعاية الدائمة، والملاحظة التامة، وعندما لا يوضعون فيما يحسن وضعهم به، أو عندما يحسون بأنهم منسيون، أو عندما لا يعرف الانسان محله ومهمته المكلف بها كل هذا يؤثر على نفسية الأتباع بالدعوة ويولد عندهم فتورا عنها.

هذه النواحى الثلاث لابد من تلافيها لأى دعوة تقوم على أساس مبدأ معين وعدم تلافيها يعطل سير الدعوة ويقتلها.

وأنت عندما ترى حياة رسول الله ﷺ. وقيادته لأتباعه فى هذه الجوانب تجد تجنبه لهذه الجوانب، ووجود عكسها بشكل لا مثيل له. بحيث لا تستغرب بعد كيف انتصرت هذه الدعوة، وهذه الجماعة، وكيف توسعت على مر الأيام.

ففى الجانب الأول رأيت البحث السابق عن تربية الرسول ﷺ وكيف أن الأمة الإسلامية كلها قد وسعت تربية. وكيف ارتفع الأفراد من طور الى طور بحيث أصبحوا نماذج يقتدى بها.

وفى الجانب الثانى ترى الحركية الدائمة التى كان يجعل أصحابه دائما يعيشونها. فإذا أسلم رجل رباه التربية الاسلامية ثم كلفه أن يقوم بأعباء الدعوة فى جهة من جهاتها، أو يقوم بجزء من أعبائها، وفى الجانب الثالث ترى دقة الرسول فى الرعاية والعناية والسهر على شئون الأتباع بشكل عجيب، ولعل هذا الجانب هو الأحق بالتمثيل هنا لأن الجانبين الآخرين ممثل لهما فى غير هذا المقام!!

أخرج ابن إسحاق عن أم سلمة أنها قالت: لما ضاقت مكة، وأوذى أصحاب رسول الله وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه، لا يصل اليه شئ مما يكره، ومما ينال أصحابه. فقال لهم رسول الله: «إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه» وقد وجههم مرتين الى الحبشة. مرة فى السنة الخامسة، ومرة فى السنة السابعة، حيث كان المسلمون مقدمين على أعظم مراحل الاضطهاد. مرحلة المقاطعة الشاملة.

وعندما قرر الرسول الهجرة الى المدينة، وجه أتباعه كلهم قبله، وبقى فى مكة

حتى إذا لم يبق إلا من له عذر خرج مهاجرا، وأخرج أحمد عن شداد بن عبد الله قال: قال أبو أمامة: يا عمرو بن عبسة بأى شئ تدعى أنك ربع الاسلام؟ قال: إنى كنت فى الجاهلية أرى الناس على ضلالة ولا أرى الأوثان شيئا ثم سمعت عن رجل يخبر أخبار مكة ويحدث أحاديث. فركبت راحلتى حتى قدمت مكة، فإذا أنا برسول الله مستخف واذا قومه عليه جراء فتلطفت له فدخلت عليه فقلت: ما أنت؟

قال: أنا نبى الله؟ فقلت: وما نبى الله؟

قال: رسول الله. قال قلت: الله أرسلك؟ قال: نعم. قلت: بأى شئ أرسلك؟ قال: بأن يوحد الله ولا يشرك به شئ وكسر الأوثان وصلة الرحم. فقلت: من معك على هذا؟ قال: حر وعبد (أو عبد وحر) وإذا معه أبو بكر بن أبى قحافة وبلال مولى أبى بكر. قلت: إنى متبعك، قال. إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ولكن ارجع الى أهلك. فاذا سمعت بى قد ظهرت فالحق بى. قال: فرجعت إلى أهلى وقد أسلمت. فخرج رسول الله مهاجرا إلى المدينة فجعلت أتخبر الأخبار حتى جاء ركبه من يثرب. فقلت: ما هذا المكى الذى أتاكم؟ قالوا: أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك. وحيل بينهم وبينه، وتركنا الناس سراعا. قال عمرو بن عبسة: فركبت راحلتى حتى قدمت عليه المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفنى؟ قال: نعم، ألست أنت الذى أتيتنى بمكة؟ قال: قلت: بلى..

هذه أمثلة ثلاثة تدلك على مبلغ دقة الرسول فى توجيه أصحابه بالشكل الذى يحمون فيه ويأمنون، وكيف أنه لا ينسى أحدا منهم، بل يستوعبهم جميعا برعايته، وكيف يعدهم للحظة المناسبة، وكيف يسير كل واحد منهم بحكمة تناسب وضعه، ولا ننتقل بك من هذا البحث حتى نضرب لك أمثلة ثلاثة أخرى على سهره على حاجات أتباعه الشخصية وتأمينها لهم:

- أخرج أحمد عن مجاهد أن أبا هريرة كان يقول: والله إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع وان كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه. فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستتبعنى فلم يفعل، فمر عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته

الا ليستتبعنى فلم يفعل، فمر أبو القاسم فعرف ما فى وجهى وما فى نفسى فقال: أبا هريرة.. قلت له: لبيك يا رسول الله. فقال: الحق. واستأذنت فأذن لى فوجدت لبنا فى قدح قال: من أين لكم هذا اللبن؟ فقالوا: أهداه لنا فلان ـ أو آل فلان ـ قال: أبا هر.. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: انطلق الى أهل الصفة فادعهم لى. قال: واهل الصفة أضياف الإسلام لم يأووا إلى أهل ولا مال إذا جاءت رسول الله هدية أصاب منها وبعث إليهم منها وإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم ولم يصب منها قال: وأحزننى ذلك وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتقوى به بقية يومى وليلتى وقلت: أنا الرسول فإذا جاء القوم كنت أنا الذى أعطيهم وقلت ما يبقى لى من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال: أبا هر.. خذ فأعطهم. فأخذت القدح فجعلت أعطيهم فياخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم ودفعت الى رسول الله فأخذ القدح فوضعه فى يده وبقى فيه فضلة ثم رفع رأسه ونظر الى وتبسم وقال: أبا هر.. قلت: لبيك رسول الله. قال: بقيت أنا وأنت. فقلت: صدقت يا رسول الله، قال: فاقعد فاشرب، قال: فقعدت فشربت ثم قال لى: اشرب فشربت فما زال يقول لى اشرب فأشرب حتى قلت: لا.. والذى بعثك بالحق ما أجد له فى مسلكا قال: ناولنى القدح، فرددت إليه القدح فشرب من الفضلة.

وأخرجه البخارى كذلك.

– وأخرج أحمد عن ربيعة الأسلمى قال:

كنت أخدم النبى فقال لى: يا ربيعة.. ألا تزوج؟ قلت: لا والله يا رسول الله ما أريد أن أتزوج وما عندى ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلنى عنك شئ، فأعرض عنى، ثم قال لى الثانية: يا ربيعة.. ألا تزوج؟ فقلت: ما أريد أن أتزوج ما عندى ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلنى عنك شئ، فأعرض عنى، ثم رجعت إلى نفسى فقلت: والله لرسول الله أعلم منى بما يصلحنى فى الدنيا والآخرة والله لئن قال لى: ألا تزوج؟ لأقولن: نعم يا رسول الله مرنى بما شئت. فقال لى: يا ربيعة.. ألا تزوج؟ قلت: بلى.. مرنى بما شئت.

قال: انطلق الى آل فلان - حى من الأنصار كان فيهم تراخ عن رسول الله ﷺ - فقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلنى إليكم يأمركم أن تزوجونى فلانة - لامرأة منهم - فذهبت إليهم فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلنى إليكم يأمركم أن تزوجونى، فقالوا: مرحبا برسول الله وبرسول رسول الله ﷺ، والله لا يرجع رسول رسول الله ﷺ إلا بحاجته.

فزوجونى وألطفونى وما سألونى البينة. فرجعت إلى رسول الله ﷺ حزينا. فقلت: يا رسول الله.. أتيت قوما كراما فزوجونى وألطفونى وما سألونى البينة وليست عندى صداق.

فقال رسول الله ﷺ: يا بريدة الأسلمى.. اجمعوا له وزن نواة من ذهب.. قال: فجمعوا لى وزن نواة من ذهب فأخذت ما جمعوا لى فأتيت النبى ﷺ قال: اذهب بهذا إليهم فقل لهم: هذا صداقها فأتيتهم فقلت: هذا صداقها فقبلوه ورضوه وقالوا: كثير طيب، قال: ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ حزينا فقال: يا ربيعة.. مالك حزين؟ فقلت: يا رسول الله ما رأيت قوما أكرم منهم رضوا بما آتيتهم وأحسنوا وقالوا: كثير طيب وليس عندى ما أولم. فقال: يا بريدة.. اجمعوا له شاة. قال: فجمعوا لى كبشا عظيما سمينا، فقال رسول الله ﷺ: اذهب إلى عائشة - رضى الله عنها - فقل لها: فلتبعث بالمكتل الذى فيه الطعام. قال: فأتيتها فقلت لها ما أمرنى به رسول الله ﷺ فقالت: هذا المكتل فيه سبع آصع شعير، لا والله لا والله إن أصبح لنا طعام غيره.. خذه. قال: فأخذته فأتيت به النبى ﷺ وأخبرته بما قالت عائشة، قال: اذهب بهذا إليهم فقل لهم: ليصبح هذا عندكم خبزا وهذا طبيخا، فقالوا: أما الخبز فسنكفيكموه وأما الكبش فاكفونا أنتم، فأخذنا الكبش أنا وأناس من أسلم فذبحناه وسلخناه وطبخناه فأصبح عندنا خبز ولحم فأولمت ودعوت النبى ﷺ.

وأخرج أحمد عن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه أن جليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن فقلت لامرأتى:

لا تدخلن عليكم جليبيبا، إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن.

قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبى ﷺ

فيها حاجة أم لا . فقال النبى ﷺ لرجل من الأنصار : زوجنى ابنتك . قال : نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين . قال : إنى لست أريدها لنفسى، قال : فلمن يا رسول الله؟ قال : لجليبيب . قال : أشاور أمها، فقال : إن رسو الله ﷺ يخطب ابنتك، قالت : نعم ونعمة عين، قال : إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجليبيب، قالت : لجليبيب . . أنيه لجليبيب أنيه، لا لعمر الله لا نزوجه . فلما أن أراد ليقوم ليأتى النبى ﷺ ليخبره بما قالت أمها قالت الجارية : من خطبنى اليكم؟ فأخبرتها أمها . فقالت : أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟! ادفعونى إليه فإنه لن يضيعنى! فانطلق أبوها الى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال : شأنك بها، فزوجها جليبيبا، قال : فخرج رسول الله ﷺ فى غزوة له، قال : فلما أفاء الله عز وجل عليه قال : هل تفقدون من أحد؟ قالوا : لا . قال : لكنى أفقد جليبيبا، قال : فاطلبوه . فوجدوه الى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه فقالوا : يا رسول الله . . ها هو ذا الى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه . فأتاه النبى ﷺ فقال : قتل سبعة ثم قتلوه؟ هذا منى وأنا منه ــ مرتين أو ثلاثا . ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له،ماله سرير إلا ساعد النبى ﷺ ثم وضعه فى قبره، لم يذكر أنه غسله، قال ثابت : فما كان فى الأنصار أيم أنفق منها » .

ولعل فى هذه الأمثلة كفاية على إبراز مقدار رعايته لأتباعه واستيعابهم فى كل الجوانب .

* * *

٤ - الثقة التى كان يتمتع بها عليه السلام عند أتباعه

للثقة بين الناس وقائدهم أهمية عظيمة جدا عند أصحاب الفكر السياسى لذلك ترى فى أنظمة الحكم الديموقراطية، أن الحكومة تبقى حاكمة ما دامت متمتعة بثقة شعبها التى تعرفها ببعض الوسائل، وقديما قال كونفوشيوس حكيم الصين : إن الحكومة ينبغى أن توفر لشعبها الثقة بها والحماية لها، بواسطة القوة والطعام والشراب وما يلزم . قالوا فإن لم تستطع أن تؤمن هذه الأشياء الثلاثة قال تتخلى عن تأمين الطعام والشراب، قالوا فإن لم تستطع تأمين الاثنتين الأخيرتين قال : تتخلى عن تأمين القوة والحماية ولا تفرط فى الثقة » .

وهذا شئ معقول إذ ما دام الناس واثقين بحكومتهم ومتعاونين معها، فانهم يستطيعون بالتالى أن يسدوا النواقص، أما إذا فقدت الثقة: تلاشى كل شئ، وفقدت الأمة قوتها وحمايتها وهذا شئ مجرب تاريخيا. إن فقدان الثقة يشل العمل السياسى ويميت حركة الأمة ويضعف روحها المعنوية، ويضرب اقتصادها وبالتالى يهوى بها.

لذلك كان من أهم عوامل نجاح القائد السياسى للأمة ثقة الأمة به ومحبتها له، فإن هذا إذا وجد يعوض كل النواقص وكل الفراغات، فإذا ما وضح هذا بشكل عام نقول:

إن تاريخ العالم كله لا يعرف مثلا واحدا يشبه ما كانت عليه ثقة أتباع الرسول ﷺ به.

إن ثقة الناس بالقائد الرسول، كانت ثقة متناهية، يكفى لإدراكها أن ترى بعضا من مواقف الصحابة فى أدق وأصعب وأحرج الأحوال:

فى يوم العقبة حيث تم اللقاء بين الرسول ﷺ والوفد الثانى للأنصار كان من أمرهم:

قال العباس بن عبادة:

- يا معشر الخزرج.. هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم.

قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فان كنتم ترون أنكم اذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه؟ فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافوه بما دعوتموه اليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف.

وقال أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله.. وإن بيننا وبين الناس حبالا _ أى أحلافا وعهودا _ فلعلنا نقطعها ثم ترجع الى قومك وقد قطعنا الحبال وحاربنا الناس. فضحك رسول الله ﷺ من قوله وقال: الدم الدم.. الهدم الهدم. وفى رواية: بل الدم الدم.. والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

ثم أقبل أبو الهيثم على قومه فقال: يا قوم.. هذا رسول الله ﷺ أشهد أنه لصادق وأنه اليوم فى حرم الله وأمنه وبين ظهرى قومه وعشيرته فاعلموا أنه إن تخرجوه رمتكم العرب عن قوس واحدة فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال فى سبيل الله وذهاب الأموال والأولاد فادعوه إلى أرضكم فإنه رسول الله حقا وإن خفتم خذلان فمن الآن. فقالوا عند ذلك: قبلنا عن الله وعن رسوله. ما أعطيانا وقد أعطينا من أنفسنا الذى سألتنا يا رسول الله فخل بيننا يا أبا الهيثم وبين رسول الله فنبايعه، فقال أبو الهيثم: أنا أول من بايع.

وأخرج أحمد من حديث بيعة العقبة:

فقلنا – أى الأنصار – يا رسول الله.. علام نبايعك؟

قال: تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل والنفقة فى العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأن تقولوا فى الله لا تخافوا فى الله لومة لائم وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة. فقمنا اليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة رضى الله عنه وهو من أصغرهم فقال: رويد يا أهل يثرب.. فانا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم وتعضكم السيوف فأما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، واما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله..

قالوا: أمط عنا يا سعد فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدا.

* * *

من هذه النصوص يشعر الإنسان بمقدار الثقة التى كانت تملأ قلوب هذا الرعيل الأول مع معرفتهم بما سيترتب على هذه البيعة من آثار مخيفة.

ومن مواقف مقدمات معركة بدر:

قال رسول الله ﷺ مخاطبا أصحابه:

ما ترون فى قتال القوم؟

فقام المقداد بن عمرو فقال:

إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى عليه السلام: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.

ثم تكلم آخرون ثم قال سعد بن عبادة:

إيانا يريد رسول الله ﷺ والذى نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها الى برك الغماد لفعلنا.

وقال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله.

قال: أجل.

قال: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك ما تقر به عينك.. فسر على بركة الله.

* * *

هذه المواقف، وكل حياة الرسول ﷺ مع أصحابه مواقف من هذا النوع تدلك على مقدار الثقة المتناهية التى كانت لرسول الله فى قلوب أصحابه.

والحقيقة أن شخصية الرسول ﷺ كانت من الأسر والقوة والنفاذ، بحيث لا يملك من يخالطها إلا أن يذوب فيها، إلا إذا كانت شخصيته معقدة، ولعل فى قصة مولاه زيد بن حارثة ما يؤكد هذا المعنى. إذ يأتى أبو زيد وأعمامه ليشتروه ويرجعوا به الى أهله حرا ولكن زيدا يختار صحبة محمد مع العبودية والغربة. على فراقه، مع الحرية ولقاء الأهل، وهذه ظاهرة عجيبة أن يصارح زيد أهله بهذا. وهو ليس صغير السن بل كان وقتذاك ناضج الفكر، فكافأه محمد ـ كان ذلك قبل النبوة ـ أن حرره وتبناه.

ويكفينا ما ذكرناه فى هذا الفصل. فالسيرة وحياة الصحابة كلها شواهد على أن الثقة التى تمتع بها رسول الله ﷺ بين أتباعه لم يعرف العالم لها مثيلا.

٥- استطاعة القائد الاستفادة من كل إمكانيات الأتباع العقلية والجسمية أثناء الحركة، مع المعرفة الدقيقة بإمكانية كل منهم ووضعه فى محله

إن عبقرية القيادة لا تظهر بشئ ظهورها بمعرفة الرجال، ووضع كل فى محله. واستنفاذ عقول الأتباع بالشورى، واستخلاص الرأى الصحيح، وفى كل من هذين كان الرسول ﷺ الأسوة العليا للبشر.

إن الشورى فى فن السياسة عملية تستجمع فيها طاقات العقول كلها لاستخلاص الرأى الصالح، ويتحمل فيها كل فرد مسئولية القرار النهائى، ويقتنع فيها كل فرد بالنتيجة. فيندفع نحو المراد بقوة، وترتفع بها ملكات الفرد وروح الجماعة. ويبقى الإنسان فيها على صلة بمشاكل أمته وجماعته، ولذلك جعل الله أمر المسلمين شورى بين المسلمين، حتى يتحمل كل فرد من المسلمين المسئولية كاملة ولا يبقى مسلم مهملا.

والظاهرة التى نراها فى حياة الرسول ﷺ كقائد. حبه للشورى، وحرصه عليها، ومحاولته توسيع دائرتها، واستخلاصه الرأى الأخير فى النهاية.

قبيل غزوة بدر استشار الناس فأشار المهاجرون، فلم يكتف، ثم استشار الناس فأشار الخزرج والأوس ثم اتخذ قراره الأخير فى الحرب حتى يمحو أى تردد عن أى نفس.

ولما عسكر المسلمون يوم بدر فى أدنى ماء جاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟

قال: بل هوالرأى والحرب والمكيدة.

قال: يا رسول الله.. فإن هذا ليس بمنزل، امض بالناس حى تأتى أدنى ماء من القوم فتعسكر فيه ثم تغور ما وراءه من الآبار ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأى. ونفذ ﷺ ما أشار به.

وقبيل يوم احد استشار الناس وأخذ برأى الأكثرية.

ويوم الأحزاب أخذ برأى سلمان الفارسى، ويوم الحديبية أشارت عليه أم سلمة زوجته فأخذ برأيها.

إنها القيادة التى لا تستكبر أن تنزل على رأى مسلم كائنا من كان، ما دام الرأى سليما صحيحا، والقيادة الصالحة هى التى تعمم الشورى حتى لا يبقى أحد عنده رأى إلا قاله، وخاصة فيما يكون فيه غرم، بعد غزوة حنين جاءت هوازن مسلمة وسألوا رسول الله ﷺ أن يرد عليهم سبيهم وثروتهم فقال لهم: إن معى من ترون، وإن أحب الحديث إلى أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم؟

قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئا. فقام رسول الله ﷺ فى المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد.. فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه اياه من أول مال يفيء الله علينا فليفعل.

فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله. فقال لهم: انا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم. فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم عادوا الى رسول الله ﷺ يخبرونه أنهم قد طيبوا وأذنوا.

إنها الشورى التى يأخذ فيها كل إنسان حقه ولقد علم المسلمون من نبيهم هذا فأحسنوا القيام به حتى أن كان عمر بن الخطاب ليستشير المرأة فربما أبصر فى قولها الشئ يستحسنه فيأخذ به.

* * *

وأما معرفة الرجال ووضع كل فى محله المناسب له وتكليفه بالمهمة التى يصلح لها فكذلك لا يلحق برسول الله ﷺ أحد فيها.

إن أبا بكر وعمر كانا فى زمن رسول الله ﷺ يلقبهما الصحابة بالوزيرين له وكان يسمر معهما فى قضايا المسلمين ولما مرض ﷺ أمر أبا بكر أن يصلى بالناس وهذا الذى جعل المسلمين يختارونه بعد خليفة ثم كان عمر الخليفة الثانى والناس

يعرفون ماذا فعل أبو بكر وعمر يوم حكما الناس فهل يشك أحد أن تركيز الرسول ﷺ على هاتين الشخصيتين كان فى محله وأنهما من الكفاءة فى المحل الأعلى وأن رأى رسول الله ﷺ فيهما فى محله وهذان مثلان فقط وإلا فما اختار رسول الله ﷺ رجلا إلا ورأيت الحكمة فى هذا الاختيار.

يقول عمرو بن العاص فى قصة إسلامه وخالد بن الوليد:

فوالله ما عدل بى رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى أمر حزبه منذ أسلمنا. وما أحد إلا ويعرف كفاءة هذين الرجلين من آثارهما بعد.

عندما أتى وفد بنى تميم الى رسول الله ﷺ قالوا: يا محمد.. جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا.

قال: لقد أذنت لخطيبكم فليقل فقام عطارد بن حاجب فقال. فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس الخزرجى أن يرد عليه فرد ثم قام شاعر بنى تميم فقال. فأمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت أن يرد، فغلب خطيب رسول الله ﷺ خطيبهم وشاعر رسول الله ﷺ شاعرهم.

لكل مقام رجال.. وكان رسول الله ﷺ أكثر الخلق فراسة فى اختيار الرجل المناسب للمقام المناسب.

ولعل فى قصة نعيم بن مسعود بالغ الدلالة على ما قلناه:

كان نعيم بن مسعود حسن الصلة بكل القبائل المعادية للمسلمين يوم الأحزاب سواء فى ذلك يهود بنى قريظة أو قومه أو قريش.. وفى أحلك اللحظات أيام الأحزاب أسلم نعيم وقد أصبح المسلمون بين بنى قريظة فى الداخل والمشركين بعد الخندق وإذا أتى المسلمون من قبل قريظة لم يعد يصلح خط دفاع المسلمين واضطروا للدخول فى معركة مفتوحة ليست متكافئة ولذلك فان الرسول ﷺ وقد أسلم نعيم يكلفه ألا يعلن إسلامه وأن يقوم بعملية تخلخل صف العدو.

يقول عليه السلام لنعيم:

إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة. ورجع

نعيم وكان أمره ما سنقصه عليك مما يشهد أن اختيار رسول الله ﷺ كان موفقا غاية التوفيق.

خرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية، فقال: يا بنى قريظة.. قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم.

قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم.

فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره. وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به أن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه. فقالوا له: لقد أشرت بالرأى.

ثم خرج حتى أتى قريشا، فقال لأبى سفيان ومن معه: قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا وأنه قد بلغنى أمر رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا عنى.. فقالوا: نفعل.

قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد. وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم؟ ثم نكون لك على من بقى منهم حتى نستأصلهم. فأرسل إليهم أن نعم. فإن بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان.. إنكم أصلى وعشيرتى وأحب الناس إلى. ولا أراكم تتهمونى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم.

قال: فاكتموا عنى.

قالوا: نفعل.

ثم قال لهم مثل ما قال لقريش.

وحذرهم ما حذرهم..

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان من صنع الله ورسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان الى بنى قريظة عكرمة ابن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام فقد هلك الخف والحافر. فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم أن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم. ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدا معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا، حتى نناجز محمدا. فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تتشمروا الى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا. ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا الى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا، فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا. فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا: إن الذى ذكر لكم نعيم لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا. فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا الى بلادهم. وهكذا أفلح المسلمون فى فصم عرى التحالف بين الأحزاب المجتمعة عليهم.

* * *

٦- قدرته الكاملة عليه السلام على حل المشاكل الطارئة

إن الدعوات والتنظيمات السياسية التى تقوم على أساسها، كثيرا ما تضرب بسبب مشكلة طارئة لا تستطيع القيادة أن تحلها حلا موفقا، مما يؤدى إلى انقسام أصحابها أو ضربها والقضاء عليها، وكلما كانت القيادة أقدر على حل المشاكل كلما كان ذلك أضمن لنجاح الدعوة.

وقد يحدث أن بعض القيادات تحل المشاكل حلا غير مشروع فتستعمل القوة مع أتباعها، فتبيد المعارضين أو تسجنهم أو.. كما نرى كثيرا من هذا فى عصرنا الحاضر.

إلا أن الظاهرة التى لا مثيل لها فى تاريخ القيادات العالمية أنك تجد قدرة لا مثيل لها على حل المشاكل بكل بساطة عند رسول الله ﷺ هذا مع سلوك الطريق الألطف مع الأتباع. والذى عرف العرب عن كثب أى قيادة هذه قيادة رسول الله ﷺ التى استطاعت أن تشق الطريق بأقل قدر ممكن من المتاعب.

أنه لا توجد أمة فى العالم أكثر مشكلات من الأمة العربية، إذ العوامل النفسية التى تثير المشاكل كثيرة جدا، فكلمة قد تثير حربا، وجرح كرامة قد يؤدى إلى ويلات ونظام للثأرات، وشعور بالولاء، وعواطف متأججة، وعصبية عارمة وجرأة نادرة وقسوة وصلابة وعدم انضباط.. وكل واحدة من هذه تحتاج الى قيادة تتمتع بكفاءة منقطعة النظير وكان رسول الله ﷺ القائد الفذ الذى استطاع أن يدبر أمر هذا الشعب القوى المراس ويحل كل مشاكله بكل بساطة وهذه أمثلة على حلوله السريعة للمشاكل:

١- حله لمشكلة وضع الحجر الأسود:

قبل النبوة حين هدمت قريش الكعبة وأعادت بناءها وهذه رواية ابن إسحاق للحادث:

قال ابن إسحاق:

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الأخرى حتى تحاوزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا لعقة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصفوا. فزعم (إذ يروى أن المشير على قريش مهشم بن المغيرة، ويكنى أبا حذيفة) بعض أهل الرواية:

أن أبا أمية بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان عامئذ أسن قريشا كلها، قال: يا معشر قريش.. اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه، ففعلوا.

فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا. هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: هلم إلى ثوبا، فأتى به، فأخذ الركن فرضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعا، ففعلوا. حتى إذ بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه.

٢- نموذج من حلوله السريعة لمشاكل المنافقين:

فى مرجع رسول الله ﷺ يوم غزوة بنى المصطلق نزل المسلمون على ماء فحدثت حادثة أراد عبد الله بن أبى أن يستغلها ليهدم وحدة صف المسلمين وهو قديما رأس قومه فلنر ماهية الحادثة وكيف حلها رسول الله ﷺ:

يقول ابن هشام: فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان ابن وبر الجهنى على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه، يا معشر المهاجرين. فغضب عبد الله بن أبى بن سلول - وعنده رهط من قومه - فيهم زيد بن أرقم غلام حدث - فقال: أو فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا.. والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

(جلابيب قريش: لقب كان المشركون يلقبون به من أسلم من المهاجرين).

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله.

فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، لا ولكن أذن بالرحيل. وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها: فارتحل الناس.

وقد مشى عبد الله بن أبى بن سلول الى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن

أرقم قد بلغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ولا تكلمت به، وكان فى قومه شريفا عظيما.

فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله.. عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل. حدبا على ابن أبى بن سلول ودفعا عنه.

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسيد ابن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال:

يا نبى الله.. والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأى صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبى ابن سلول. قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؟ قال: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت. هو والله الذليل وأنت العزيز؟ ثم قال: يا رسول الله.. أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه يرى أنك استلبته ملكا.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبحوا وصدر يومهم ذلك حتى آذنتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبى.

ثم راح رسول الله ﷺ بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع يقال له بقعاء..

ونزلت السورة التى ذكر فيها المنافقين فى ابن أبى ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد ابن أرقم ثم قال: هذا الذى أوفى لله بأذنه. وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى الذى كان من أمر أبيه فقال: يا رسول الله.. إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى انظر إلى قاتل عبد الله بن أبى

يمشى فى الناس، فأقتله، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا.

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى.

* * *

٣- حله لمشاكل الهجرة:

ولما هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الى المدينة كانت هناك مشاكل تحتاج الى حل سريع:

(أ) قضية انسجام الناس بعضهم مع بعض وهم من قبائل شتى.

(ب) إيجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس فى المدينة وليسوا كلهم مسلمين فمنهم اليهود ومنهم المنافقون ومنهم المسلمون.

(جـ) حل المشكلة الاقتصادية اذ المهاجرون تركوا أولادهم ومساكنهم، ومشكلة المهاجرين دائما مشكلة صعبة حتى بالنسبة للدول الحديثة، ثم كان اليهود هم المسيطرين على السوق التجارية. إذ السوق الوحيدة فيها لهم ولنرى كيف حلت هذه المشاكل كلها بسهولة.

وقد حلت المشكلة الأولى والثالثة مع بعضهما على الشكل التالى:

ما كادت الأمور تستقر بالمدينة حتى أنشأ الرسول ﷺ للمسلمين سوقا ليستغنوا عن سوق اليهود، وشرع بأمر الله سنة الاخاء فكل مهاجرى جعل له أخا أنصاريا، وجعل هذه الأخوة أعمق من أخوة النسب فكانوا يتوارثون بها وحض الناس على الكرم والسخاء والايثار، وصادف ذلك نفوسا ما عرف التاريخ أشرف منها، ولا أرقى بعد الرسل، فكان من آثار ذلك الشئ العجيب.

روى البيهقى عن عبد الرحمن بن عوف قال:

كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

أما بعد.. أيها الناس فقدموا لأنفسكم. تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه ـ ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ـ ألم يأتك رسولى فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فينظر يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم، من استطاع أن يقى نفسه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف.. والسلام عليكم وعلى رسول الله.

وروى البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالا فأقسم مالى نصفين ولى امرأتان فانظر أعجبهما اليك فسمها لى أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك.. أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع فما انقلب الا ومعه فضل من أقط وسمن.

ومن خبر الأنصار يوم هاجر إليهم الناس أنهم كانوا يختصمون على المهاجر كلهم يريد أن يضمه إلى نفسه حتى أنه لم ينزل مهاجرى على أنصارى إلا بقرعة.

بهذه الروح التى بثها رسول الله ﷺ فى أتباعه حلت مشكلة من أكبر المشاكل استعصاء على الحل.

أما المشكلة الثانية وهى إيجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس إذ المجتمع المدنى كان مؤلفا من الأوس والخزرج وبينهما عداء قديم، واليهود وكانوا منقسمين على بعضهم، بعضهم مع الأوس وبعضهم مع الخزرج، وهم حريصون على أن يبقى النزاع بين الأوس والخزرج. ثم أتى المهاجرون وهم كذلك من عشائر كثيرة فكان من أمر رسول الله ﷺ أن كتب أول وثيقة سياسية فى الاسلام بين هذه الأطراف كلها تمثل الدستور الذى يتعايش به هؤلاء جميعا وقد رضوا جميعا به.

قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبى - ﷺ - بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون (الربعة: الحال التى جاء الاسلام وهم عليها) بينهم: وهم يفدون عانيهم (العانى: الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى (المعاقل: الديات، الواحدة: معقلة) كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنوالحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بن المؤمنين. وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم، أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجيرعليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله، الا على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا، وأن المؤمنين بين بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وانه لا يجبر مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط (أى قتله بلا جناية منه توجب القتل) مؤمنا قتلا عن بينة، فانه قود به الا أن يرضى ولى المقتول. وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم الا

قيام عليه، وانه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شئ، فان مرده إلى الله عز وجل، والى محمد ﷺ ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فانه لا يوقع الا نفسه (أى يهلك نفسه) وأهل بيته.

وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف، وان ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى ثعلبة ما ليهود بنى عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كانفسهم، وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف: وإن البر دون الاثم، وان موالى ثعلبة كأنفسهم.

وإن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج أحد إلا بإذن محمد ﷺ ، وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الاثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وانه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل والى محمد ﷺ، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فانهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فان لهم على المؤمنين، إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم، وأن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

قال ابن إسحاق: وأن البر دون الاثم، لا بكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو اثم، وأن الله جار لمن أبر وأتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

* * *

٤- حلة لمشكلة دفاع الأوس عن قريظة يوم قريظة:

أثناء غزوة الأحزاب أعلن بنو قريظة نقضهم للعهد مع رسول الله ﷺ وقرروا الحرب وكان قصة ذلك كما يلى:

كان من جملة الرجال الذين ألبوا العرب حتى تجمعوا لحرب رسول الله ﷺ فى هذه الغزوة حيى بن أخطب اليهودى فلما اجتمعت العرب عامة وحاصرت المدينة أتى حيى بن أخطب كعب بن أسد سيد قريظة ليقنعه بإنهاء عهده مع رسول الله ﷺ والمشاركة فى الحرب ضده وكان كعب حتى تلك اللحظة مغلقا أبوابه وحصونه وملتزما الوفاء بعهده مع رسول الله ﷺ.

ولما طرق حيى بن أخطب باب كعب قال له كعب رافضا أن يفتح له الباب: إنك امرؤ مشؤوم، وإنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه ولم أر منه إلا وفاءا وصدقا. وبعد أخذ ورد سمح له كعب بالدخول فقال حيى:

ويحك يا كعب.. جئت بعز الدهر وبحر طام.

قال: وما ذاك؟

قال: جئتك بقريش على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم الى جنب أحد وقد عاقدونى وعاهدونى عل ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه.

قال كعب: جئتنى والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماءه يرعد ويبرق وليس فيه شئ. دعنى وما أنا عليه فإنى لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا.

ولكنه لم يزل به وببنى قريظة حتى أقنعهم بنقض العهد فأحضرت قريظة

الصحفية التى كتب بها الميثاق فمزقتها وبعث النبى من يستكشف له الأمر كسعد بن معاذ حليف بنى قريظة فى الجاهلية فقالوا له: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد وسبوا سعدا فقالوا له وهو سيد الأوس بكل وقاحة: أكلت أير أبيك..

وكانت خيانة داخلية فى أحرج المواقف، وغدرا لو أعطى ثمراته الخبيثة لاستؤصل الاسلام والمسلمون، إذ به لا تعود للخندق فائدة، ويتحطم خط دفاع المسلمين، وتكون الكارثة، إنها خيانة جزاؤها بشكل طبيعى الإعدام.

وانتهت غزوة الأحزاب بانسحاب المشركين ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين للتوجه الى بنى قريظة لمعاقبتهم وحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه وكانوا يعرفون أن الحكم فيهم سيكون القتل والصحابة كلهم يعرفون أن جزاءهم سيكون كذلك. وهذا هو الحكم الحق والعدل والذى نصت عليه توراة اليهود نفسها.

وقبل أن يصدر الرسول ﷺ حكمه تواثبت الأوس وطلبوا من الرسول ﷺ العفو كما عفا عن بنى النضير، إذ بنو قريظة كانوا حلفاء الأوس فى الجاهلية، وبنو النضير كانوا حلفاء الخزرج، والأوس والخزرج كانتا تتنافسان فى كل شئ، وإذن فرسول الله ﷺ أمام معارضة من قسم كبير من أصحابه فى قضية حساسة هى قضية تنفيذ عقوبة يستحقها مجرمون فكان من أمر رسول الله ﷺ معهم ما هذه قصته كما يرويها ابن هشام حيث حكم سيد الأوس فيهم، وسيد الأوس هو الذى عانى ما عانى من بنى قريظة يوم غدروا، وسيد الأوس ما كان يحكم إلا بما استحق هؤلاء فرضيت الأوس بتحكيم سيدها وحكم بالعدل فى أمرهم وهو القتل جزاء خيانتهم ورضيت الأوس:

يقول ابن هشام:

فلما أصبحوا ـ أى بنى قريظة ـ نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله.. إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت ـ وقد كان رسول الله ﷺ قبل بنى قريظة قد حاصر بنى قينقاع، وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه. فسأله إياهم عبد الله بن أبى بن سلول فوهبهم له ـ فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال رسول الله ﷺ: فذاك إلى سعد بن معاذ.

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة فى مسجده، كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين. وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: اجعلوه فى خيمة رفيده حتى أعوده من قريب. فلما حكمه رسول الله ﷺ فى بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم، وكان رجلا جسيما جميلا ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو.. أحسن فى مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد أتى ـ آن ـ لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه الى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التى سمع منه.

فلما انتهى سعد الى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: قوموا الى سيدكم، فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار.

وأما الأنصار فيقولون: قد عم بها رسول الله ﷺ فقاموا اليه فقالوا: يا أبا عمرو.. إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم – قال: وعلى من هاهنا؟ – فى الناحية التى فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالا له ـ فقال رسول الله ﷺ: نعم. قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذرارى والنساء.

قال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة».

ثم نفذ رسول الله ﷺ الحكم.

* * *

٥- حله لمشكلة هزيمة أحد:

يوم أحد خسر المسلمون المعركة بسبب عدم تنفيذ مخطط الرسول ﷺ للمعركة كاملا وهذا الفشل سيكون من آثاره ما يلى:

١- ضعف الروح المعنوية عند المسلمين.

٢- طمع القبائل العربية كلها بالمسلمين.

٣- سقوط هيبة المسلمين العسكرية.

٤- توجه قلوب الناس كلها للقضاء على المسلمين.

٥- تنفس المنافقين واليهود وتربصهم الشر بالمسلمين.

٦- وهناك احتمال بعد أحد أن يفكر المشركون وقد انتصروا ورجعوا أن يعودوا لاستئصال المسلمين من جديد وقد سنحت لهم الفرصة.

فكيف فعل رسول الله ﷺ لتلافى هذه النتائج كلها:

إنه ما كاد يصل إلى المدينة حتى أمر المسلمين الذين دخلوا المعركة أن يستعدوا مباشرة للحرب رغم إعيائهم ثم خرج بهم تابعا آثار المشركين ولم يكد المشركون يسمعون بأنباء هذا الهجوم والطرد وراءهم إلا وأعلنوا الرحيل الذى يشبه الهرب مع انهم كانوا يفكرون أثناءها بالرجوع إلى المدينة لاستئصال المسلمين فيها ولم تقع يومها حرب ولكن هذه العملية الجريئة غسلت آثار أحد كلها وبشكل سريع. إذ كانت معركة أحد يوم السبت وكان خروج الجيش هذا يوم الأحد وبقى معسكرا فى حمراء الأسد طيلة ثلاث ليال ونزل القرآن بعد ذلك فربى المسلمين ووعظهم وغسل كل الآثار النفسية للهزيمة.

* * *

هذه أمثلة خمسة ضربناها لنرى كيف كان رسول الله ﷺ يحل المشاكل بسرعة عجيبة فلا يبقى لها أى أثر، هذه الإمكانية العجيبة فى حل المشاكل. جعلت رجلا كبرنارد شو الأديب الانجليزى المشهور يقول: ما أحوج العالم الى رجل كمحمد يحل مشاكله وهو يشرب فنجانا من القهوة (أى ببساطة). وهذه الأمثلة التى ضربناها، نماذج. وإلا فمن قرأ كتب الحديث ككتاب البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وموطا مالك ومسند أحمد وكتب حياة الصحابة وكتب السيرة، رأى كثرة المشاكل اليومية الفردية والجماعية التى كانت تعترض رسول الله ﷺ وهو يسوس

شعبا من أعصى شعوب العالم انقيادا وطاعة وسياسة، ومع هذا فما عرف أن مشكلة مرت عليه إلا وحلها بسهولة كاملة واستقامة مع منهج الحق الذى يدعو اليه، والذى يمثل أرقى صور الواقعية والمثالية بآن واحد، وما كان ذلك ليكون لو لا توفيق الله ورعايته.

* * *

٦- بعد نظره عليه السلام وضرباته السياسية الموفقة:

إن الدارس لتصرفات رسول الله يجد أنه لا يوجد تصرف من تصرفاته عليه السلام، إلا وفيه غاية الحكمة، وبعد النظر، فمثلا يرسل كسرى الى عامله على اليمن «باذان» أن يهيج رسول الله، وأن يقبض على رسول الله ليرسله الى كسرى فيرسل «باذان» رجلين ليقبضا على رسول الله ويأتيا به إلى كسرى ويأمر «باذان» أحد الرجلين أن يدرس أحوال رسول الله فلما وصل الرجلان أبقاهم الرسول عنده خمسة عشر يوما دون رد عليهم وقتل كسرى فى اليوم الخامس عشر فأنبأهم عليه السلام بقتل كسرى يوم مقتله وأهدى أحد الرجلين منطقة فيها ذهب وفضة وأرسل الى «باذان» رسالة مضمونها أنه إن أسلم أعطاه ما تحت يده وكان من آثار هذا كله أن خلع «باذان» ولاءه لكسرى وأسلم معلنا ولاءه لمحمد ﷺ.

ويوم أراد المنافقون أن يستغلوا شعائر الاسلام، ليوجدوا عملا منسقا فيما بينهم ضد الاسلام، بأن يبنوا مسجدا يكون مركزا لتآمرهم ودسهم وتجمعاتهم المشبوهة. أمهلهم عليه السلام حتى عاد من غزوة تبوك، ثم حرق المسجد وهدمه وفضح الله أمرهم، والأمثلة من هذا النوع كثيرة كلها تدل على حنكته عليه السلام وحكمته وبعد نظره السياسى، وإن كان العمل السياسى عنده عليه السلام غير منفصل عن غيره، فنجده يخاطب كل قوم بأسلوب ينسجم مع نفسيتهم، ويعامل كل إنسان بطريقة ترضى هذا الإنسان بالحق وهكذا، انظر إلى خطابه الى وفد بنى الحارث بن كعب تجده يختلف عن أى خطاب آخر خاطب به وفدا من الوفود لأن هذه القبيلة لها وضع خاص.

قال ابن هشام:

فأقبل خالد إلى رسول الله وأقبل معه وفد بنى الحارث بن كعب منهم قيس بن الحصين ذى العصة ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وعبد الله بن قراد الزيادى وشداد بن عبد الله القنانى وعمر بن عبد الله الضبانى فلما قدموا على رسول الله فرآهم قال: من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟ قيل: يا رسول الله.. هؤلاء رجال بنى الحارث ابن كعب، فلما وقفوا على رسول الله سلموا عليه وقالوا: نشهد أنك رسول الله وأنه لا اله الا الله. قال رسول الله: وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله، ثم قال رسول الله: أنتم الذين إذا زجروا استقدموا. فسكتوا فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الثانية فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الثالثة فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الرابعة فقال يزيد بن عبد المدان: نعم يا رسول الله، نحن الذين إذا زجروا استقدموا. قالها أربع مرار، فقال رسول الله: لو أن خالدا لم يكتب إلى أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم. قال يزيد بن عبد المدان: أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا. قال: فمن حمدتم؟ قالوا: حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله. قال: صدقتم، ثم قال رسول الله: بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية؟ قالوا: لم نكن نغلب أحدا. قال: بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم. قالوا: كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحدا بظلم.

ولما كانت خطتنا فى هذا البحث الاختصار فسنكتفى بتحليل موقف من أبرز مواقفه السياسية عليه السلام، تتضح به حنكته وحكمته بشكل كامل. هذا الموقف هو الموقف الذى تمخض عنه صلح الحديبية، وما لهذا الصلح من آثار رائعة وهذه هى القصة كما يرويها ابن هشام نذكرها ثم نعقب عليها:

قال ابن هشام:

واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش الذى صنعوا، أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له.

وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى فقال: يا رسول الله.. هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها الى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش.. لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (فى صفحة العنق).

ثم قال: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها؟ وإن رجلا من بنى أسلم قال: أنا يا رسول الله. فسلك بهم طريقا وعرا أجرل ـ كثير الحجارة ـ بين شعاب، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا الى أرض سهلة عند منقطع الوادى قال رسول الله ﷺ للناس: قولوا: نستغفر الله ونتوب اليه. فقالوا ذلك. فقال: والله إنها للحطة التى عرضت على بنى اسرائيل فلم يقولوها فأمر رسول الله ﷺ فقال: اسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض فى طريق تخرجهم على ثنية المرار، مهبط الحديبية من أسفل مكة.

فسلك الجيش ذلك الطريق. فلما رأت خيل قريش قترة الجيش - غبار الجيش - قد خالفوا عن طريقهم، رجعوا راكضين إلى قريش. وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك فى ثنية المرار بركت ناقته. فقالت الناس: خلأت الناقة - بركت ولم تنهض - قال: ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها، ثم قال للناس: انزلوا. قيل له: يا رسول الله.. ما بالوادى ماء ننزل عليه. فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه فنزل به فى قليب من تلك القلب ـ القليب: بئر ـ فغرزه فى جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء الخزاعى فى رجال من خزاعة فكلموه وسألوه: ما الذى جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا

للبيت، ومعظما لحرمته، ثم قال لهم نحوا مما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا الى قريش فقالوا: يا معشر قريش.. إنكم تعجلون على محمد، إن محمدا لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا هذا البيت، فاتهموهم وجبهوهم وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالا، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا، ولا تحدث بذلك عنا العرب.

وكانت خزاعة غيبة نصح رسول الله ﷺ، مسلمها ومشركها، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة.

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا قال: هذا رجل غادر، فلما انتهى الى رسول الله ﷺ وكلمه قال له رسول الله ﷺ نحوا مما قال لبديل وأصحابه، فرجع الى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ ثم بعثوا اليه الحليس بن علقمة ـ أو ابن زيان ـ وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع الى قريش ولم يصل الى رسول الله ﷺ إعظاما لما رأى.

فقال لهم ذلك. فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك. فغضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش.. والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظما له، والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. فقالوا له: مه.. كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم بعثوا الى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفى، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال:

يا محمد.. أجمعت أوشاب الناس - الأوشاب: الأخلاط - ثم جئت بهم الى بيضتك - القبيلة والعشيرة - لتفضها بهم. إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل. قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا. وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا، وأبو بكر الصديق خلف رسول الله ﷺ قاعد، فقال: امصص بظر اللات، أنحن ننكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟

قال: هذا ابن أبى قحافة.

قال: أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها، ولكن هذه بها.

ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه. والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ فى الحديد. فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول:

اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك.

فيقول عروة: ويحك ما أفظك وأغلظك.

فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة: من هذا يا محمد ؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة. قال: أى غدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس. فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا.

فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شئ إلا أخذوه. فرجع الى قريش فقال: يا معشر قريش.. إنى قد جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشئ أبدا.. فروا رأيكم.

وإن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعى، فبعثه الى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له «الثعلب» ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ.

ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه الى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال: يا رسول الله.. إنى أخاف قريشا على نفسى وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان. فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه الى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته. فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد ابن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان

حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل. قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم. فدعا رسول الله الناس الى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: ان رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على ألا نفر فبايع رسول الله ﷺ الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها الا الجد بن قيس أخو بنى سلمة فكان جابر بن عبد الله يقول: والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته قد ضبأ اليها يستتر بها من الناس ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى ذكر من أمر عثمان بن عفان باطل.

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بنى عامر بن لؤى إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: ائت محمدا فصالحه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. فلما انتهى سهيل الى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح.

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر.. أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر.. الزم غرزه، فإنى أشهد أنه رسول الله، قال عمر، وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله. ألست برسول الله؟

قال: بلى.

قال: أولسنا بالمسلمين؟

قال: بلى.

قال: أوليسوا مشركين؟

قال: بلى.

قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟

قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعنى.

فكان عمر يقول: مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرا.

ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب «باسمك اللهم» فكتبها ثم قال: اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله ﷺ: اكتب:

«هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو: اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم. ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يرد عليه. وإن بيننا عيبة مكفوفة وإنه لا إسلال ولا إغلال. وإنه من أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه».

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم، وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب، السيوف فى القرب، لا تدخلها بغيرها.

فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد، قد انفلت الى رسول الله ﷺ وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله ﷺ فى نفسه، دخل علي الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون.

فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه، ثم قال: يا محمد.. لقد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقت. فجعل ينثره بتلابيبه ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين.. أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟ فزاد ذلك الناس الى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل.. اصبر واحتسب، فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم.

فوثب عمر بن الخطاب مع أبى جندل يمشى إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنهم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدنى عمر قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن الرجل بأبيه، ونفذت القضية فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الرحمن بن سهيل بن عمرو، وسعد ابن أبى وقاص، ومحمود بن مسلمة، ومكرز بن حفص ــ وهو يومئذ مشرك ــ وعلى بن أبى طالب، وكان هو كاتب الصحيفة» ا.هـ.

هذه قصة الحديبية فلنر آثارها وقيمة هذا العمل من الناحية السياسية الحركية:

يقول الزهرى: فما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضا والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالاسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه. ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان فى الاسلام قبل ذلك.

قال ابن هشام:

والدليل على قول الزهرى أن رسول الله ﷺ خرج الى الحديبية فى ألف وأربع مائة فى قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف، وحسبك أن تعلم أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة زعماء قريش أسلموا فى هذه المرحلة.

ومن آثار هذه العملية:

أن تهدمت حجة قريش الأساسية فى جمعها العرب على رسول الله ﷺ إذ أن قريشا أخذت زعامتها من كونها مجاورة للكعبة بيت الله ولهذا الجوار ولتعظيمها لهذا البيت كانت العرب تعظمهم وتدين لهم فلما سار رسول الله ﷺ معلنا عمرته وتعظيمه للبيت الحرام تهدم أمام الرأى العام كثير من الحجب.

ومن آثار هذه العملية أن فرغ الرسول الله ﷺ من العرب الذين يسيرون فى فلك قريش لغيرهم، وأن تفرغ لليهود فأنهاهم من جزيرة العرب سياسيا وعسكريا واقتصاديا، ومن آثار هذه العملية أن اقتنعت كثير من القبائل العربية بتعنت قريش حتى أن الأحابيش كادوا يدخلون المعركة بجانب محمد ﷺ يومها وهم حلفاء قريش المشركة.

ومن آثار هذه العملية أن أعطيت القبائل العربية حرية التحالف مع محمد ﷺ وهذا شئ ما كان ليكون من قبل، فدخل من شاء من هذه القبائل فى حلف رسول الله ﷺ.

ومن آثار هذه العملية وكثرة إقبال الناس على الإسلام بعدها، أن انقطع أمل الناس من غير المسلمين بنصر أو عزة أو غلبة أو منعة إلا بالإسلام، فضلا عن انقطاع أملهم بإنهاء الإسلام والمسلمين.

ومن آثار هذه العملية أن تفرغ رسول الله ﷺ لفتح آفاق أمته على العالم. وتفهيمهم مهمتهم العالمية، بإرسال رسله وكتبه الى الدول الكبرى يومذاك: كسرى وهرقل والمقوقس والنجاشى.

ومن آثار هذه العملية أن خمدت فتن المنافقين الذين كانوا يشدون أزرهم، وتتقوى ظهورهم بقريش، وتبعثرت القبائل العربية الوثنية، وهمدت حدة قريش وعصبيتها، واسترخت وأخذت تقوى تجارتها، وركنت إلى السلام، ولما كانت الهدنة مديدة المدة لم تفكر فى البحث عن أحلاف لها بينما كان المسلمون يتوسعون يوميا.

ومن آثار هذه العملية فتح مكة. إذ عندما نقضت قريش عهدها واعتدت على حلفاء رسول الله ﷺ من بنى خزاعة وعمد رسول الله ﷺ الى مكة فاتحا. لو لا صلح الحديبية وما أحاط به لرأيت عرب الجزيرة العربية كلهم وقد ورمت أنوفهم وأقبلوا للدفاع عن مكة وكعبتها وأصنامها وقريشها، ولكن صلح الحديبية والآثار التى ترتبت عليه لم يبق بقية من الحمية لا عند قريش ولا عند غيرها لها، فكان أن فتحت مكة صلحا بل لقد فتحت مكة من يوم دخلها المسلمون فى العام التالى للصلح بأعدادهم الضخمة وروحهم العالية المرتفعة. وتظاهرتهم التى أرهبت من رآها.

لقد كانت ضربة سياسية لا يستطيعها غير محمد ﷺ. إذ ضربها وأصحابه غير راضين، وأعداؤه لا يعرفون كيف يتصرفون. وإنك عندما تعلم أن عمر وكبار الصحابة كانوا كارهين لما حدث، وترى بعد ذلك هذه الآثار، تدرك أن الأفق الذى ينظر منه رسول الله ﷺ أفق فريد فى تاريخ الزعامات كلها.

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذا البحث أن نتعرض لمصير أقسى الشروط التى فرضتها قريش فى المعاهدة والذى أثار المسلمين، وهو أن قريشا لا ترد من جاءها من المسلمين مرتدا وأن المسلمين يردون من جاءهم من مكة مسلما بدون إذن، لقد كانت نهاية هذا الشرط أن طلبت قريش نفسها إلغاء هذا الشرط من المعاهدة وقصة ذلك ما يلى:

لما فر أبو بصير عبيد بن أسيد وهاجر إلى المدينة بعد صلح الحديبية أرسلت قريش وراءه رجلين وقالوا:

العهد الذى جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا، فاستله الآخر فقال: أجل والله لقد جربت به ثم جربت. فقال أبو بصير: أرنى أنظر اليه فأمكنه منه فضربه به حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال ﷺ حين رآه:

لقد رأى هذا ذعرا. فلما انتهى الى النبى قال: قتل والله صاحبى وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا نبى الله.. قد وفى الله ذمتك قد رددتنى إليهم ثم أنجانى الله

منهم فقال ﷺ : ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد . فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر. قال: وتفلت منهم أبو جندل ابن سهيل فلحق بأبى بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت عنده عصابة فوالله ما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا تعرضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده الله تعالى والرحم لما أرسل اليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل اليهم » .

وهكذا ألغت قريش بنفسها أشد البنود قسوة كما ظنها المسلمون .

إذا عرفت آثار الحديبية وعرفت أن الصحابة كلهم كانوا غضابا لهذا الصلح . حتى أن رسول الله ﷺ لما أمرهم بعد كتابة الصلح أن يقوموا فينحروا هديهم ويحلقوا متحللين من إحرامهم لم يقم منهم رجل واحد، مما داخلهم من الغم من تكرار رسول الله ﷺ الأمر ثلاثا . ولم يفعلوا إلا بعد أن حلق عليه السلام ونحر هديه، هنالك أفاقوا ونفذوا ما أمرهم به، إذا عرفت هذا تدرك الأفق العالى الذى كان ينظر منه عليه السلام، وتدرك أن قيادته جزء من صلته بالله المحيط علما بكل شئ فكان مسددا راشدا مهديا .

* * *

٧ ، ٨ - الوصول الى النصر وتطبيق ما كان العمل من أجله بعد النصر وإحكام البناء بحيث يكون قادرا على الصمود فى المستقبل ووضع أسس النمو الدائب المتطور بحيث تحتفظ الدعوة بإمكانية السير عبر العصور:

لقد مضى على بدء الإسلام أربعة عشر قرنا ولا زال الإسلام بانتشار ولا زال يتوسع، ورغم كل ما تبذله الدعايات الكافرة من أعدائه . سواء أكانوا أصحاب دين أو غير أصحاب دين، بطرق منظمة وغير منظمة، فلا زال الإسلام هو الإسلام ولا زال قادرا على أكثر من الحركة، ورغم الملابسات التاريخية التى أوقعت العالم الإسلامى فى قبضة أعدائه، ورغم سيطرة هؤلاء الأعداء . فالإسلام باق، ورغم أن الكافرين استطاعوا أن يهيؤا لأعداء الإسلام وسائل الانتصار داخل العالم الإسلامى، فالاسلام شامخ يتحدى ويقهر .

وخلال هذا التاريخ الطويل. دخل الإسلام فى صراع مع ثقافات فغلبها ، ومع أديان فغلبها، ومع قوى عظيمة فصهرها.

وخلال هذا التاريخ الطويل سقطت دول تحكم باسم الإسلام، وقامت دول تحمل الإسلام واستوعب الإسلام الجميع.

وفى كل مرة كان الاسلام محمولا حق الحمل، كان أصحابه هم الغالبين وحضارته أرقى الحضارات وما أتى المسلمون إلا من تقصيرهم وتفريطهم وجهلهم بالإسلام.

القرون الوسطى عند الأوروبيين قمة التأخر، والقرون الوسطى عندنا قمة التقدم، وكانوا يومها متمسكين بدينهم وكنا لا زلنا متمسكين بديننا. ومن هنا مفرق الطريق، حيث كان الإسلام حمل أتباعه على التقدم. وسنرى هذا واضحا فى المبحث الثالث، وحيث كان غير الإسلام دينا كان تأخر.

والإسلام الآن يصارع على كل مستوى شرقا وغربا فكرا وسلوكا وهو فى كل حال أبداً غالب وإن اضطهد المسلمون فذلك لقوة فكرهم لا لشئ آخر.

وما أحد يجهل أن روح الجهاد فى قلب المسلمين هى التى حررت العالم الإسلامى من قبضة مستعمريه فى عصرنا هذا، وإن كان جهاد المسلمين ضرب بيد ناس منهم وليسوا منهم، فأبدلوا بعد التحرير المسلمين بالاسلام مذاهب أخرى. هذا الاسلام الذى كان هكذا عبر العصور يحمله جيل الى جيل وهو الآن يستعد ليكون له المستقبل كله.

هذا الإسلام استطاع أن يفعل هذا لأن الأساس الذى بناه رسول الله ﷺ له خلال ثلاث وعشرين عاما، كان من القوة بحيث يحمل كل العصور، ويسع كل العصور.

* * *

ونحن اليوم نرى دعوات فكرية وسياسية كثيرة، لا تحمل فى جوهرها إمكانية تطبيقها، أو لا تستطيع قياداتها أن تحققها فى عالم الواقع مع أن بيدها كل السلطان

وبيدها كل الوسائل. ولكنها تقف عاجزة عن تحقيق الفكرة، وأحيانا تتراجع من نصف الطريق، ولكن الظاهرة التى نراها فى حياة رسول الله ﷺ أنه خلال عشر سنوات فقط كان كل جزء من أجزاء دعوته قائما يمشى على الأرض، على أكمل ما يكون التطبيق، وكل جزء من أجزاء دعوته قابلا للتطبيق، خلال كل عصر وما مر عصر إلا ورأيت الإسلام مطبقا بشكل من الأشكال، فإذا ما علمت بأن دعوة سياسية فكرية تحتاج الى عشرات السنين ليست عملية عادية وإنما هى شئ خارق للعادة تحس وراءه يد الله. وتحس بالتالى أن الدين دين الله. وأن محمدا عبده ورسوله.

* * *

وقد آثرنا هنا الاختصار لأن المسألة الثالثة «الاسلام» كلها برهان عملى على أن شريعة الاسلام وأحكامه تعلو فى كل عصر وعلى كل فكر.

وننتقل هنا نقلة أخرى لاستعراض جوانب الشخصية القيادية لرسول الله ﷺ فى أمور الحرب كما وعدنا فى أول هذا البحث.

* * *

القسم الثانى: الرسول عليه السلام
الشخصية القيادية العسكرية المثلى

قبل الكلام عن شخصية الرسول الله ﷺ العسكرية، نحب أن نذكر بعضا من مواقفه العسكرية كنماذج تكون بمثابة مقدمة للحديث فى هذا الموضوع:

(أ) قال ابن هشام يروى قصة فتح حصون خيبر عن أنس ابن مالك:

«واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش قالوا: محمد والخميس.. فأدبروا هرابا فقال رسول الله: الله أكبر خربت خيبر.. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

قال ابن إسحاق:

وكان رسول الله حين خرج من المدينة الى خيبر سلك على عصر - جبل بين المدينة ووادى الفرع - فبنى له فيها مسجدا ثم على الصهباء - موضع بينه وبين خيبر

روحة – ثم أقبل رسول الله بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع. فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله، فبلغنى أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله من خيبر جمعوا له ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه. حتى إذا ساروا منقلة سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسا. ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا علىٰ أعقابهم فأقاموا فى أهاليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله وبين خيبر.. يفتحها حصنا حصنا».

تأمل: عنصرى المفاجأة والمداهمة، حيث لم يستطع يهود حصون خيبر، أن يجمعوا قوتهم، وتأمل حيلولة رسول الله ﷺ بينهم وبين المدد، وتأمل الاحتياطات المتخذة لإبقاء غطفان فى مواقعها.

* * *

(ب) بعد فتح مكة سمع رسول الله ﷺ أن قبائل هوازن وثقيف ونصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بنى هلال قد جمعوا جموعهم لحربه، فبعث إليهم عبد الله ابن أبى حدرد الأسلمى وأمره أن يدخل فى الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ابن حدرد فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ، وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

يقول ابن هشام:

فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ليلقاهم ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدرعًا له وسلاحًا فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال: يا أبا أمية .. أعرنا سلاحك هذا نلحق فيه عدونا غدًا، فقال صفوان: أغصبًا يا محمد؟ قال: بل عارية ومضمونة حتى نؤديها لك، قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح».

وخرج رسول الله ﷺ بجيش عدته اثنا عشر ألفًا منهم ألفان من أهل مكة.

وجعل أمير مقدمته خالد بن الوليد، وطبعًا المفروض أن تكون مهمته استطلاعية.

يقول جابر بن عبد الله فيما يرويه عنه ابن هشام:

«لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادي من أودية تهامة أجوف خطوط إنما تنحدر فيه انحداراً وفي عماية الصبح - أى ظلامه قبل أن يتبين - وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا فى شعابه وأحنائه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا».

وهنا تجد كيف أن خالدا رجل الحرب العظيم، قد فشل فى مهمته الاستطلاعية الضاربة، إذ أصبح فى الكمين هو ومقدمته. وكانت صدمة فرت منها المقدمة وثبت خالد، إلا أن الجيش لما رأى المقدمة فارة دون معرفة السبب، والجيش فيه من أهل مكة الكثير وهم بعد ليسوا فى حالة نفسية جيدة. ففروا وأخذ الناس هول المفاجأة وبدقائق معدودات فر الجيش كله، ولم يبق حول رسول الله ﷺ أحد.

أخرج البخارى عن أنس رضى الله عنه قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم ومع رسول الله ﷺ عشرة آلاف والطلقاء فأدبروا عنه حتى بقى وحده فنادى يومئذ ندائين لم يخلط بينهما التفت عن يمينه فقال: يا معشر الأنصار.. قالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، ثم التفت عن يساره فقال: يا معشر الأنصار.. فقالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك. وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال: أنا عبد اله ورسوله.

وروى ابن هشام عن العباس بن عبد المطلب قال:

إنى أسمع رسول الله ﷺ آخذا بحكمة بغلته _ أى لجامها _ البيضاء قد شجرتها بها وكنت امرءا جسيما شديد الصوت ورسول الله ﷺ حين رأى ما رأى من الناس:

أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شئ فقال: يا عباس.. اصرخ: يا معشر الأنصار.. يا معشر أصحاب السمرة، فقال: فأجابوه: لبيك لبيك.. فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله حتى إذا اجتمع اليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا وكانت الدعوى أول ما كانت: يا للأنصار ثم خلصت أخيرا يا للخزرج، وكانوا صبرا عند الحرب.

عن جابر بن عبد الله قال: بينا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله يصنع ما يصنع، إذ هوى له على بن أبى طالب ورجل من الأنصار يريدانه فيأتيه على ابن أبى طالب من خلفه فضرب عرقوبى الجمل فوقع على عجزه ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجف عن رحله واجتلد الناس فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله ﷺ.

تأمل هذه المقتطفات من غزوة حنين: إرساله العيون للاستطلاع. اختياره خالدا. استعارته الأدراع والسلاح. تلافيه الهزيمة. إدارته المعركة بنفسه. معرفته برجاله الذين يعتمد عليهم فى ساعة المحنة.

وقبل الانتقال عن هذا المقام، نحب أن نذكر هنا موقفا يجمع بين أعلى ما فى العبقرية العسكرية والسياسية:

بعد الانتهاء من معركة حنين قرر الرسول الله ﷺ أن يفتح الطائف، فذهب إليها وحاصرها، وكان أهلها عندهم خبرة فى فن الدفاع العسكرى، والبلدة محصنة وخيراتها كثيرة ورأى الرسول الله ﷺ أن الحصار سيطول فاستشار نوفل بن معاوية فقال:

يا نوفل.. ما ترى فى المقام عليهم؟ فقال: يا رسول الله.. ثعلب فى جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك. فأمر النبى ﷺ عمر بن الخطاب أن يؤذن فى الناس بالرحيل.

والآن تصور منطقة الطائف وحولها قبائل موتورة منذ قريب لا زالت مستقلة فهى لاشك إذا تفرغت لنفسها ولم تشغل قد تسبب مشكلة خطيرة فى قلب الدولة الاسلامية. إذ تكون مجمعا لكل موتور حاقد.

فانظر كيف هيأ لها رسول الله ﷺ ما يشغلها ويضايقها حتى أسلمت:

كان قائد القبائل المحاربة لرسول الله ﷺ يوم حنين مالك بن عوف. وقد فر بعد المعركة ولجأ الى ثقيف فلما جاء وفد هوازن يفاوض الرسول الله ﷺ سألهم عن مالك ابن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: أخبروا مالكا أنه إن أتانى مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الابل. فأتى مالك بذلك

فخرج من الطائف. وقد كان مالك خاف ثقيفا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله قال ما قال فيحبسوه فأمر براحلته فهيئت له، وأمر بفرس له فأتى به إلى الطائف فخرج ليلا فجلس على فرسه فركض حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس، فركبها فلحق برسول الله فأدركه بالجعرانة أو بمكة فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الابل وأسلم فحسن إسلامه.. فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه وتلك القبائل: ثمالة وسلمة وفهم فكان يقاتل بهم ثقيفا لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم فقال أبو محجن الثقفي: هابت الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سلمة. وأتانا مالك بهم للعهد والحرمة. وأتونا فى منازلنا ولقد كنا أولى نقمة».

فانظر كيف استطاع رسول الله ﷺ أن يشغل ثقيفا ويضايقها فيقضى على الأخطار والمشاكل المتوقعة بهذه البساطة الكبيرة.

* * *

لعلك بهذين المثالين من مواقفه العسكرية عليه السلام أخذت صورة على أن محمدا ﷺ فى القيادة العسكرية، فهو فى كل شئ، يمثل دائما القمة التى لا يرقى إليها آخرون، وقد حلا لعباس محمود العقاد أن يعقد مقارنة بين محمد ﷺ والقائد العسكرى الفرنسى النابغة فى فن الحرب نابليون بونابرت، فأرانا فى هذه المقارنة أنه ما من قضية مهمة فى أمر الحرب فطن لها نابليون وطبقها إلا وكان رسول الله ﷺ سباقا لها. هذا مع أن نابليون كان متفرغا مختصا بفن الحرب. ثم إنه صادف فى حياته العسكرية من الفشل ما لم يحدث قط لرسول الله ﷺ عسكريا، ولا لمن رباهم ودخلوا المعارك الكبرى بعده، هذا مع ملاحظة الامكانيات المحدودة لرسول الله ﷺ والامكانيات الكثيرة الموجودة بيد غيره من أمثال نابليون وقد استطرد العقاد استطرادات مفيدة فى هذا الموضوع نحب أن ننقلها - مع شئ من الحذف لبعض الجمل - لفائدتها ولكن قبل ذلك نحب أن نقرر هذه الحقيقة وهى:

أن الرسول ﷺ بدأ حياة دولته العسكرية بجيش مقداره ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا. محاط بقبائل الجزيرة العربية كلها. مشركيها ويهودها ونصاراها وكلها معادية له، وفى الجزيرة العربية وعلى أطرافها سلطان لفارس والروم، وقد استهدفهم رسول الله

ﷺ بحربه وبهذه القوة الصغيرة وبدعوته الكبيرة شق رسول الله ﷺ طريقه دعوة وسياسة وحربا. فأخضع الجزيرة العربية كلها، ولم يتوقف إلا وقد هيأ المسلمين لحرب الفرس والروم بآن واحد. فأتم خلفاؤه ما بدأه عسكريا. فسقطت الدولة الفارسية وتقلصت الدولة الرومانية عن آسيا وأفريقيا تقريبا. كل ذلك بحوالى ثلاث وعشرين عاما وما حدث بعده من فتوحات لا يمكن أن ينسب إلا إليه فإنه من آثار تربيته وتأسيسه وتخطيطه.

وهذا شئ يتحدى التاريخ سابقا ولاحقا أن يكون قد حدث مثله ولو مرة فى تاريخ العالم. فنحن إذا ما نقلنا هذه المقارنة لا نعنى التساوى. حاشا، وإنما نريد أن نبرهن على أن كل عظمة يرجح بها رسول الله ﷺ على الاختصاصيين المتفرغين لها، وهو فى كماله بها ككماله فى كل شئ غيرها، يرجع الناس كلهم بكمالاتهم كلها.

* * *

يقول «العقاد»: ونختار أبرع القادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذى كان هو الأسلوب الغالب فى العصور الماضية، والذى ظهر فى الحرب العالمية الحاضرة أنه لا يزال الخطوة الأخيرة فى جميع الحروب، على الرغم من الحصون والسدود. لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق فى خطط النبى العسكرية، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم.

١- «فنابليون» كان يوجه همه الأول إلى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع.. وإنما كان عنايته الكبرى منصرفة الى مبادرة الجيش الذى يعتمد عليه العدو بهجمه سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان وهو على يقين أن الفوز فى هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التى يلجأ اليها جلة القواد.

وعنده أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور:

أن يختار الموقع الملائم له،

وأن يختار الفرصة،

وأن يعالج العدو قبل تمام استعداده.

وكان النبى ﷺ سابقا إلى تلك الخطط فى جميع تفصيلاتها . . فكان كما قدمنا لا يبدأ أحدا بالعدوان، ولكنه إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال، بل ربما وصل إليه الخبر كما حدث فى غزوة تبوك والناس مجدبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة . . فلا يثنيه ذلك عن الخطة التى تعودها، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال ولا يبالى ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدى ، فلم يحدث ما توقعوه .

وكان عليه السلام يعمد الى القوة العسكرية حيث أصابها فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها . . ولا يضيع الوقت فى انتظار ما يختاره أولئك الأعداء وإضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة فى أيدى المهاجمين، إلا أن يكون الهجوم وبالا على المقدمين عليه، كما حدث فى غزوة الخندق .

٢- وكان نابليون يقول : إن نسبة القوة المعنوية الى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة إلى واحد .

والنبى عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه المعنوية التى هى فى الحقيقة قوة الايمان . وربما بلغت نسبة هذه القوة الى الكثرة العددية كنسبة خمسة الى واحد فى بعض المعارك مع رجحان الفئة الكثيرة فى السلاح والركاب إلى جانب رجحانهم فى عدد الجنود . . .

ومعجزة الايمان هنا أعظم جدا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة، فالنبى عليه السلام كان يحارب عربا بعرب، وقرشيين بقرشيين، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة . فلا يقال هنا أن الفضل لقوم على قوم فى المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا فى جيوش نابليون . وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والايمان .

٣- وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية او التجارية التى يتناولها اقتداره، فكان يحارب الانجليز بمنع تجارتهم وسفنهم أن تصل إلى القارة الأوروبية وتحويل المعاملات عن طريق انجلترا إلى طريق فرنسا .

وهكذا كان النبى عليه السلام يحارب قريشا فى تجارتها، ويبعث السرايا فى أثر القوافل كلما سمع بقافلة منها.

وأنكر بعض المتعصبين من كتاب أوروبا هذه السرايا وسموها: «قطعا للطريق» وهى سنة المصادرة بعينها التى أقرها «القانون الدولى» وعمل بها قادة الجيوش فى جميع العصور، ورأينا تطبيقها فى الحرب الحاضرة والحرب الماضية، رشيدا تارة وغاليا فى الحمق والشطط تارة أخرى.

٤- وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه إلى الجيش، ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة.

ونرجع الى غزوات النبى عليه السلام فلا نرى أنه حاصر محلة، إلا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التى عسى أن تخرج منها قبل استعدادها، أو قبل نجاحها فى الغدر والوقيعة، كما حدث فى حصار بنى قريظة وبنى قينقاع، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم فى الميدان المختار بغير كبير اختلاف.

٥- وكان نابليون معتدا برأيه فى الفنون العسكرية، ولا سيما الخطط الحربية، ولكنه مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغنى عن مشاورة صحبه فى مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال.

ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه فى خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول، ومن ذلك ما صنعه ببدر، - وألمعنا اليه آنفا - حين أشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال إلى مكان غير الذى نزلوا فيه أول الأمر، ثم بتغوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل إليه الأعداء. وقيل فى روايات كثيرة انه عمل بمشورة سلمان الفارسى فى حفر الخندق عند المنفذ الذى خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة. فحفر الخندق وعمل النبى بيديه فى حفره.

وقبول النبى مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة وسنة من سنن القواد الكبار، غير أننا نعتقد أنه عليه السلام كان خليقا أن يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسى بين أهل المدينة فى إبان الهجمة عليها، لأنه عليه السلام كان

شديد الالتفات إلى سد الثغور وحماية الظهور فى جميع وقعاته. وفى وقعة أحد جعل الجبل إلى ظهره وأقام على الشعب الذى يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين راميا مشددا عليهم فى التزام موقفهم قائلا لهم:

احموا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه.. وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فان الخيل لا تقدم على النبل، والذى يفعل هذا فى شعب جبل لا يفوته أن يفعل مثله فى ثغرة مدينة، ولكن المشاورة هنا هى المقصودة بالمضاهاة بين ما سبق إليه النبى وما تبع فيه نابليون، فهذه خصلة معهودة فى كبار القواد لا تقدح فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب.

٦- ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون.

وكانت فراسة النبى فى ذلك مضرب الأمثال، فلما رأى أصحابه يضربون العبدين المستقيين من ماء بدر لأنهما يذكران قريشا ولا يذكران أبا سفيان، علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء. وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العد سأل عن عدد الجزور التى ينحرونها كل يوم فعرف قوة الجيش بمعرفة مقدار الطعام الذى يحتاج اليه. وكان صلوات الله عليه إنما يعول فى استطلاعه أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس الى العلم بفجاجه ودروبه ويعقد ما يسمى اليوم بمجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل فيما هو خبير به من فنون أو دلائل استطلاع.

٧- واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام وكان يقول: إنه يخشى من أربعة أقلام، ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام.

والنبى عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة فى كسب المعارك وتغليب المقاصد، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون الذمة التى عاهدوا عليها ويشهرون به وبالإسلام، أو يثيرون العشائر لقتاله ويقذعون فى هجوه وهجو دينه، فينفذ إليهم من يحاربهم فى حصونهم أو يتكفل له بالخلاص منهم.

وعاب هذا بعض المغرضين من الكتاب الأوروبيين وشبهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الانجليزى كولردج الذى كان يخوض فى ذمه ويستهوى الأسماع بسحر حديثه.

إلا أن الفارق عظيم بين الحالتين، لأن حروب الإسلام إنما هى حروب دعوة أو حروب عقيدة، وإنما هى فى مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الالهية والوثنية. وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبيلا من سبل الصراع فى هذا الميدان. فليس فى حالة سلم مع النبى اذن من يحاربه فى صميم الدعوة الدينية ويقصده بالطعن فى لباب رسالته الإسلامية. وإن لم ينفر الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهده وإنما هو مقاتل فى الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ماينتظر المقاتل من المقاتلين، ولا سيما إذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة الا ريثما تعود.

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح، فلا يجوز له أن يقتل أحدا لا يحمل السلاح فى وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب إزهاق حياته. وما نهض نابليون لنشر دين أو تفنيد دين، ولو كان للرسول الاسلامى من غرض لجاز له أن يقبل المسالمة ممن يحاربونه فى دينه وإن لم يشهروا السيف فى وجهه. فاإن الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذى يضربون فيه.

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التى سبق اليها محمد وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين، ومن ا لواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح، ولم يتخذ محمد الحرب صناعة.. فإذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعا اليه فله فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الذى تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع الى أن سكن فى منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأمى بين رمال الصحراء.

ولقد كانت خبرة النبى ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال فكانت طريقته فى اختيار القائد وتزويده بالوصايا والاتباع مثلا يحتذى فى جميع العصور، ولاسيما العصر الحديث الذى كثرت فيه ذرائع التخبئة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة فكثرت فيه ــ من ثم ــ حاجة المقاتلين الى استقصاء أحوال العدو.

ففى الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التى تصدر الى قواد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو فى عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض. الى أمثال ذلك من العلامات التى تعين بها الجهات.

ويتفق فى أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعا على سر البعث ورجاله جميعا يجهلونه ولا يعرفون أهم خارجون فى غزوة أم فى مناورة استطلاع، إلى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات وهناك تصدر الأوامر التى لابد من صدورها للتهيؤ والتنفيذ ولا خوف من كشفها فى تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذى يقابلها به العدو إذا انكشفت له قبل تنفيذها بفترة وجيزة. ولاسيما إذا كانت الحركة من حركات البحار.

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة. وقد عرفت فى المأثورات النبوية على أتم أصولها التى تلاحظ فى أمثالها ، ومن ذلك أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، وفحواه أن « سر حتى تأتى بطن نخلة على اسم الله وبركاته، لا تكرهن أحدا من أصحابك على المسير معك وامضى فيمن تبعك حتى تأتى بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم ».

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثا وقديما وعند بداءة الدعوات على التخصيص.

فأولها كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبى عليه السلام، فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عينا عليه وعلى أصحابه من قبل قريش، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما فى البوح به من الخطر المحظور، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون، وأن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنة حكيمة من سنن النبى عليه السلام فى جميع المطالب وهى فى حروب الدعوات على التخصيص أقمن باتباع، ولهذا كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها على النحو الذى يتبعه قادة الحروب إلى الآن.

ومما لوحظ فى كتاب النبى لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم

وصاته ألا يكره أحدا منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته، وهذا هو أهم الملاحظات فى هذا المقام.

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذى يتقيه إذ يفر من القتال، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعه من أرسلوه، بل لعله ينقلب الى النقيض فيحرف الأخبار عمدا أو يتلقاها على غير اكتراث، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه.

ولهذا تعانى الدول أكبر العناء فى مراقبة الجواسيس بالجواسيس وفى امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة حتى تطمئن الى صحته قبل الاعتماد عليه.

وفى الحروب الحاضرة تجربة جديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطيارات وراء الصفوف، فيتسللون الى مراكز المواصلات ويعبثون بين القرى المعزولة، فيشيعون فيها الرعب والحيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كلة على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد.

قيل فى الإعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير، وقيل فى انتقادها والتنبيه إلى خطرها كثير.

فمن دواعى الاعجاب بها أنها أفادت فى قطع المواصلات وإشاعة الذعر وتضليل المدافعين وأنها شئ جديد فى شكله وإن لم يكن جديدا فى غايته ومرماه.

ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية. فهى تستلزم أن يكون الرائد غيورا على عمله متحمسا لانجازه رقيبا على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه فليس أيسر له إذا هو انفرد وأعوزته الرغبة فى إنجاز عمله من أن يستأسر فى أول مكان يصل اليه من بلاد الأعداء طلبا للسلامة. ولا عقاب عليه الى نهاية القتال. ثم يتعلل بما شاء من المعاذير إن وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه. وهيهات أن تستجمع الأدلة عليه فى أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات.

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة إن لم ينفذها مريدون متعصبون غيير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول اليهم، وهى لهذا أحرى أن تحسب من وحى إخوان الطريق وإلهام العقائد لا من النظام الذى يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود، فلو لا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفخون فى نفوس الناشئة جذوة البغضاء، ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللدد الذى يغنى عن الرقابة ساعة التنفيذ، لحبطت الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب.

وها هنا تتجلى حكمة النبى عليه السلام فى اشتراط الرغبة والطواعية واجتناب القسر والاكراه. فهذه «أولا» بعثة منفردة لا سبيل إلى الاكراه الفعال بين رجالها إذا أريد.

وهى «ثانيا» بعثة استطلاع لا يغنى فيها عمل الكاره المقسور، وألزم ما يلزم العامل فيها إيمانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه، فإن أعوزته هذه الصفة فقد أعوزه كل شئ.

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع، فقد كان عليه السلام عليما بمزاياه. معنيا به غاية العناية، يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون، فى حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية فى الوقت الضرورى، ويحول من ثم دون الانتصار عليه.

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون فى هذا الميدان حيث أصيب فى وسائل الاستطلاع، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون فى روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم.

فمن أسباب هزيمة نابليون إهماله النصائح التى سمعها فى مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل فى الحرب الروسية، لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع.

ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام، ويخلون المدن والطرقات حتى لا يرى فيها ديارا يسأله عن مكان الجيش المتراجع. أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذى كان شديد التعويل عليه.

أما «هتلر» فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والأناة.

فقد اشتهر أنه كان فى مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم. واشتهر أنه أخطأ فى استطلاع القوم إذ خيل إليه أن الشعب الروسى يتحفز للثورة ويترقب الاغارة عليه لنصرته كائنا من كان ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافى وهو عنصر الجرمان.

ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون، ولكنه لم يخطئ قط مثل هذا الخطأ فى جميع غزواته وكشوفه، ولعلنا نفهم - كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية - أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين.

* * *

عندما تنعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية . ينبغى أن ننظر الى فكرة القائد قبل أن ننظر إلى ظواهر المعارك أو أشكالها أو أحجامها، لأننا اذا نظرنا الى الظواهر فلا معنى إذن للمقارنة على الإطلاق، إذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون فى ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف، وأن حربا تدار بالمذياع والتليفون أعجب من حرب تدار بالفم والاشارة، وأن نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والابل، وأن المدفع أمضى من السيف والرصاصة أمضى من السهو، فلا معنى إذن لمقارنة بالظواهر تنتهى إلى نتيجة واحدة وهى استضخام الحرب الحديثة والنظر الى القيادة الغابرة كأنها شئ صغير الى جانب القيادة التى توجه هذه الضخامة.

لكننا إذا نظرنا الى فكرة القائد، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة فى القيادة لا نراها فى توجيه مليون بينهم الراجل والراكب، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة.

وهذه الفكرة هى التى ترينا محمدا عليه السلام قائدا حربيا بين أهل زمانه بغير نظير فى رأيه وفى الانتفاع بمشورة صحبه، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة فى توجيه كل ما يتوجه على يدى قائد من قوى الرأى والسلاح والكلام.

وهذه القدرة هى شهادة كبرى للرسول تتجلى من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال.

* * *

ويزيد هذه الشهادة عظما، أن الرجل الذى يجتنب القتال فى غير ضرورة رجل شجاع غير هياب، شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجور فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال.

* * *

فمحمد كان فى طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب، وكان على فارس الفرسان يقول: «كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب منه الى العدو».

ولولا ثباته فى وقعة حنين، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده فى وجه الرماة والطاعنين، لحقت الهزيمة على المسلمين. وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعا، وقد هددها الأعداء بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه إليه الشجاعة الكريمة لم يدعه إليه شئ. لأن المدينة كانت يؤمئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قرير فى داره، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يثنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب الى غيره.

ومشاركته فى الوقعات الأخرى هى مشاركة القائد الذى لا يعفى نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له، فهى شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود.

وإذا كان القائد خبيرا بالحرب قديرا عليها غير هياب لمخاوفها، ثم اكتفى منها بالضرورى الذى لا محيص عنه، فذلك هو الرسول تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية وتأتى جميع صفاته الحسنى تبعا لصفات الرسول» ا.هـ.

* * *

نقلنا كلام العقاد الآنف لما فيه من فوائد، إلا أننا لا نعتقد أنه أحاط بمزايا رسول

الله صلى الله عليه وسلم العسكرية. ولا نعتقد أنه أراد ذلك ، وإنما لمس بعض هذه المزايا لمسا خفيفا، ولا نعتقد كذلك أننا نستطيع استجلاء هذه المزايا كلها لقصورنا أولا وللايجاز الذى نقصده ثانيا فى هذه الكتابات، غير أن هناك ميزة تربو على كل ما ذكر لرسول الله ﷺ من ميزات فى قضية الحرب لم يتعرض لها حتى الآن هى تأمينه ﷺ لجيشه ولدولته دائما (الهيبة العسكرية) التى تجعل الآخرين دائما فى حالة رعب وقد عبر هو نفسه صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الحقيقة بقوله: «ونصرت بالرعب مسيرة شهر» وإن من جملة عوامل النصر المهمة دائما فى حرب المسلمين هذه الناحية التى وطد أركانها رسول الله ﷺ فى حياته، وحافظ عليها أصحابه بعده، وهى التى كانت تفعل فى قلوب أعدائه المقاتلين الأفاعيل. ولو درسنا حياة الرسول ﷺ العسكرية لرأينا أن هدفا كبيرا دائما من أهداف عملياته العسكرية كان إبقاء هذه الهيبة وزيادتها وتأكيدها وتوسيع دائرتها حتى وصل المسلمون الى حالة فى النهاية كان الناس كلهم يهابونهم ولا يهابون أحدا. لا دولة كبرى ولا صغرى ولا قبيلة ولا جيشا ولا سلاحا ولا عددا ولا عدة فترى الجيش الصغير (٣٠٠٠) يهجم على الجيش الكبير (٢٠٠,٠٠٠) يوم مؤتة ولا يبالى بالنتائج، وإليك عرضا موجزا لأعمال الرسول ﷺ العسكرية خلال سنة من أول سنى المدينة لتعرف كيف أوجد هذه الهيبة العسكرية وأمنها.

ما كاد يستقر بالمدينة حتى يرسل فى رمضان من السنة الأولى للهجرة حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين من المسلمين فيلتقى بأبى جهل يقود قافلة لقريش ومعه ثلاث مائة راكب فيحجز بين الفريقين مجدى ابن عمرو الجهنى فلا يقع قتال.

وفى شوال من نفس السنة يرسل عبيدة بن الحارث فى ستين راكبا الى وادى رابغ فيلتقى بأبى سفيان ومعه مائة مشرك فيترامى الفريقان بالنبل ولا يقع قتال.

وفى ذى القعدة يرسل سعد بن أبى وقاص فى نحو عشرين رجلا يعترض عيرا لقريش ولكنها تفوته، وفى صفر يخرج الرسول ﷺ بنفسه بعد أن يستخلف سعد بن عبادة على المدينة فيسير حتى يبلغ ودان يريد قريشا وبنى ضمرة فلم يلق قريشا وعقد حلفا مع بنى ضمرة.

وفى ربيع الأول خرج الرسول ﷺ على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بواط معترضا عيرا لقريش يقودها أمية بن خلف ومعه مائة من المشركين ففاتته.

وفى جمادى خرج إلى العشيرة من بطن ينبع وأقام بها شهرا صالح فيه بنى مدلج.

ثم أغار كرز بن جابر الفهرى على المدينة واستاق سرحها فخرج النبى ﷺ فى طلبه حتى بلغ وادى سفوان قريبا من بدر فهرب كرز ولم يدركه رسول الله ﷺ.

وعند مقفله من هذه الغزوة أرسل عبد الله بن جحش بسرية فيها ثمانية من المهاجرين.

وفى رمضان كانت موقعة بدر الكبرى التى كانت أول صدام عنيف مسلح بين المسلمين وغيرهم سقط فيه قتلى أعتى المشركين، فانظر من رمضان الى رمضان كم سرية وكم غزوة حركها رسول الله؟ ومن حكم هذه السرايا:

١- أنها تدريب عملى وإعداد نفسى للمسلمين يجعلهم دائما فى حالة تعبئة عامة وحذر دائم واستعداد يقظ وحركة قتالية سريعة.

٢- إشعار الأعداء بالقوة التى تهاجم ولا تنتظر حتى تهاجم وإلقاء الرعب فى قلوب من يفكر بغدر وشر.

٣- الإشعار بالانتقال من مرحلة الصبر إلى مرحلة الرد بالمثل على الظلم وإيقاف المشركين عند حدهم.

وكانت معركة بدر الضربة الساحقة التى حققت هذه الأغراض جميعا، وكان ما قبلها مقدمة لها، وخلال عشر سنوات قضاها الرسول فى المدينة، تجد أن أعماله العسكرية من غزوات إلى سرايا بلغت عشرات وكلها كانت محكمة وسريعة وناجحة، من غزوة ضد قريش إلى عملية ضد اليهود، إلى تحرك نحو القبائل العربية على الحدود الرومانية والفارسية إلى مناوشة مع الدولة الرومانية، ولم يقبض عليه السلام حتى فتح للمسلمين طريق العمل العسكرى الذى انطلقوا منه على العالم. فلم يوقفهم شئ إلا ضعف جذوة الإسلام فى أنفسهم لأمد.

والأهم من الناحية العسكرية مما قدمناه هو أن الرسول ﷺ بلغ بأتباعه من الانضباط العسكرى مبلغًا مابلغة قائد عسكرى آخر، ونحن نعلم أن الانضباط العسكرى هو كل شئ فى المعركة ولا يمكن أن تظهر عبقرية قائد عسكريا إلا إذا كان الانضباط موجودا ولذلك فإن ثمانين بالمئة من عبقرية القيادة العسكرية تظهر فى انضباط جندها معها فى اللحظة الحاسمة، فإذا بلغ رسول الله ﷺ من هذا قمته وفى أمة العرب الشعب المارد المتمرد الذى لا يعرف انضباطا ولا طاعة فتلك معجزة المعجزات.

وكمثال على مدى الروح الانضباطية التى تمتع بها المسلمون فى آخر حياته عليه السلام ما حدث يوم غزوة تبوك. إذ تخلف بعض الأتباع عن الذهاب معه ﷺ فأمر رسول الله ﷺ الناس بمقاطعتهم - وهم ثلاثة - فلم يكلمهم أحد حتى تاب الله عليهم وستمر معك القصة فى مبحث الثمرات.

إن عبقرية هذه القيادة لا مثيل لها فى كل تصرف من تصرفاتها الصغيرة والكبيرة، التى نجدها حيث يبقى أبا سفيان يوم فتح مكة على الطريق تمر به كتائب المسلمين كلها، حتى ينقطع آخر أمل له فى المقاومة وحتى يتلاشى آخر تردد عنده فى الاستسلام، والتى نجدها حيث يغزو الروم يوم تبوك ويعقد المعاهدات مع أطراف دولتهم، ممهدا بذلك هذه الأطراف لاستقبال الجيوش الإسلامية فى المستقبل.

واذا كانت نتائج العمل العسكرى ميزانا توزن به قيمة هذا العمل العسكرى، فانه لا يوجد فى ميزان العالم أجمع أثقل من العمل العسكرى الذى قام به رسول الله اذ ما من معركة حدثت للأمة الاسلامية بعد إلا وكانت قبسا من شمس رسول الله، وما من ظفر حققه المسلمون إلا ووراءه الروح التى بثها رسول الله فى موات القلوب، ولئن مرت ظروف انتصرت بها الأمة الإسلامية فى عصرنا. فاستغل انتصارها أعداؤها، فان تعاليم رسول الله ستجعل هذه الأمة فى وضع آخر مرة أخرى بإذن الله.

وبعد.. إن الرسالة الثالثة من هذا الكتاب وهى التى تشكل البحث الثالث فيه ستوضح تعاليم رسول الله بشكل مفصل. وهذا الذى جعلنا نقصر هذا البحث فقط على صفات الرسول دون ذكر التعاليم التى تنبع عنها هذه التصرفات، وبصرف النظر

عن الحدود التى حدها رسول الله لكل شئ فى الحياة البشرية لتسهيل البحث، وإنما أردنا إبراز الكمال الذى يتمتع به رسول الله فى كل شئ فى هذا الفصل. بحيث استجمع أعلى قمم السلوك البشرى فى كل شئ فكان الانسان الوحيد الذى يصح أن يكون قدوة البشر العليا فى كل شئ. وبعد أن تقرأ الرسالة الثالثة سترى بوضوح أن البشرية لن يستقيم أمرها إلا بأخذها بتعاليم محمد والاقتداء به، وأن الحدود التى حدها رسول الله فى حياته السلوكية والعملية فى كل الجوانب هى أرفع وأعدل ما ترتقى إليه آمال البشر مع الواقعية التى لا تخرج هذه التعاليم إلى مثل معطلة، وإن أى انحراف عن التأسى برسول الله واتباع تعاليمه إنما هو فى الواقع ارتكاس وانتكاس مهما حاول أهل الباطل أن يفيضوا عليه من الألقاب والنعوت والتسميات. فالرسول عليه السلام قد أعطى البشر بوحى من الله الصيغة الوحيدة للحق فمهما ابتغت البشرية الهدى فى غير هذه الصيغة فإنها إلى ضلال تسير، لقد رأيت فى هذا الباب:

أن رسول الله صادق ودلك هذا على أنه رسول الله.

وأن رسول الله أمين فى تنفيذ ما دعا إليه ودلك هذا على أنه رسول الله.

وأن رسول الله قد بلغ دعوة الله حقا ودلك هذا على أنه رسول الله.

وأن رسول الله أعقل البشر وأعظمهم فطانة فدلك هذا على أنه رسول الله حقا.

وأن رسول الله أعظم الناس فى باب التربية والتعليم ودلك هذا على أنه رسول الله حقا.

وأن رسول الله أكمل الخلق أبا وزوجا وأخلاقا وقيادة وكل ذلك دلك على أنه رسول الله حقا.

ورسول تدلك صفاته على رسالته إلى أين تفارقه متبعا أصنام الهوى وأباطيل الهوس ومجانين الضلال، إن هؤلاء لا يسيرون بك إلا إلى الهاوية.

ولكن رسول الله لا يدلك عليه فقط صفاته بل قامت الأدلة على رسالته حتى لم يزغ عن الرؤية إلا أعمى.

فإلى الباب الثانى لترى الدليل الكامل الآخر على أن محمدا رسول الله.

* * *